

الباب السادس عشر

يهود العصور الوسطى

٥٦٥ - ١٣٠٠

الفصل الأول

المجتمعات الشرقية

كان لليهود وقتئذ شريعة ولكنهم لم تكن لهم دولة ؛ كان لهم كيان ، ولم يكن لهم وطن . ذلك أن أورشليم ظلت إلى عام ٦١٤ مدينة مسيحية ، وإلى عام ٦٢٩ فارسية ، وإلى عام ٦٣٧ مسيحية مرة أخرى ، ثم ظلت من ذلك الوقت إلى عام ١٠٩٩ حاضرة إسلامية . وفي ذلك العام الأخير حاصرها الصليبيون ، وانضم اليهود إلى المسلمين في الدفاع عنها ، فلما سقطت في أيدي الصليبيين سيق من بقي فيها حياً من اليهود إلى إحدى بيعتهم وأحرقوا عن آخرهم (١) ، ولما استولى صلاح الدين على المدينة عام ١١٨٧ أعقب ذلك ازدياد سريع في عدد اليهود ، واستقبل السلطان العادل أخو صلاح الدين ثلثمائة من أحبارهم الذين فروا من إنجلترا وفرنسا في عام ١٢١١ استقبالا حسناً . لكن ابن نجمان لم يجد فيها بعد خمسين عاماً من ذلك الوقت إلا حفنة صغيرة من اليهود (٢) ، ذلك أن سكان بيت المقدس كانوا قد أصبحوا كلهم تقريباً مسلمين .

وظل اليهود كثيرون في سوريا والعراق وفارس الإسلامية رغم ما لاقوه في بعض الأحيان من الاضطهاد ورغم اعتناق عدد منهم دين الإسلام . وأضحى لهم في ربوعها حياة اقتصادية وثقافية ناشطة قوية . ولقد ظلوا في شئونهم الداخلية ،

كما كانوا في عهد الملوك الساسانيين ، يتمتعون بالحكم الذاتي تحت إشراف الإجزيلارك (رئيس اليهود في المهجر) ومديرى الجامع الدينية . واعترف الخلفاء المسلمون بالإجزيلارك في كل من بلاد بابل ، وأرمينية ، والتركستان ، وفارس ، واليمن ، رئيساً لجميع اليهود فيها ؛ ويقول بنيامين التطيلي إن جميع رعايا الخليفة كان يفرض عليهم أن « يقوموا واقفين في حضرة أمير الأسر ، وأن يحويه باحترام »^(٣) . وكان منصب الإجزيلارك وراثياً في أسرة واحدة ترجع بنسبها إلى داود ، وكان سلطانه سياسياً أكثر منه روحياً ، وقد أدى ما بذله من الجهود للسيطرة على رجال الدين إلى اضمحلاله ثم إلى سقوطه ، وأصبح مديرو الجامع العلمية بعد عام ٧٦٢ هم الذين يختارون الإجزيلارك ويسيطرون عليه .

وكانت الكليات الدينية في سورا Sura وپمديثا Pumbeditha تخرج الزعماء الدينيين والعقليين لليهود في بلاد الإسلام ، وتخرج أمثالهم بدرجة أقل لليهود في البلاد المسيحية . وحدث في عام ٦٥٨ أن أخرج الخليفة مجمع سورا العلمى من اختصاص الإجزيلارك القانونى ، فلما حدث هذا اتخذ رئيس المجمع لنفسه لقب جاؤن Gaon (صاحب السعادة) وابتدأ من ذلك الحين نظام الجاؤنية ، وعهد الجاؤنيم في الدين والعلم البابليين^(٤) . ولما ازدادت موارد كلية پمديثا وعظمت منزلتها لقربها من بغداد ، اتخذ مديروها أيضاً لأنفسهم لقب جاؤن ؛ وكاد اليهود في جميع أنحاء العالم فيما بين القرن السابع إلى القرن الحادى عشر يستفتون الجاؤنيم في المدينتين فيما يعرض لهم من مسائل التلمود القانونية ، ونشأ لليهودية من أجوبتهم على هذه المسائل أدب قانونى جديد .

وحدث في الوقت الذى قامت فيه الجاؤنية انشقاق دينى فرق العالم اليهودى في الشرق وزالته أركانه - أولعل هذا الانشقاق نفسه هو الذى حتم قيام الجاؤنية في ذلك الوقت . ذلك أنه لما توفى الإجزيلارك سليمان ، طالب ابن أخيه عن بن داود بحقه في أن يخلفه في منصبه ، ولكن زعماء سورا وپمديثا طرحوا

مبدأ الوراثة وراءهم ظهريا ونصبوا حنانيا أخا عن الأصغر إجزلا ركا
في مكانه . فما كان من عنن إلا أن طعن في الجاوثين ، وفر إلى فلسطين
وأنشأ فيها كنيسة خاصا به ، وطالب اليهود أينما كانوا أن ينبذوا التلمود
وآلا يطيعوا إلا قوانين أسفار موسى الخمسة . وكان هذا العمل من جانبه
عودة إلى الوضع الذي كان عليه الصدوقيون ؛ وكان شبنها بما ينادى به
بعض الشيعة في الإسلام من نبذ « السنة » النبوية واتباع القرآن وحده ،
وما يطالب به البروتستانت من نبذ التقاليد الكاثوليكية والعودة إلى الأناجيل .
على أن عنن لم يكتف بهذا بل أخذ يعيد النظر في أسفار موسى الخمسة
ويشرحها شرحا يعد خطوة جريئة في سبيل الدراسة النقدية لنصوص
الكتاب المقدس . واحتج على ما أدخله علماء التلمود من تبديل في الشريعة
الموسوية وما يحاوانه في تفسيرهم وشرحهم من توفيق بينها وبين الظروف
القائمة في أيامهم ، وأصر على اتباع ما جاء في الأسفار الخمسة من أوامر
وتنفيذها بنصها ، ولهذا سمي أتباعه بالقرائين(*) - أي « المتمسكين
بالنصوص » وامتدح عنن عيسى وقال إنه رجل صالح لم يرغب في نبذ
شريعة موسى المدونة ، بل كل ما كان يطلبه أن ينبذ الناس قوانين الكتيبة
والفريسيين الشفوية . ويرى عنن أن عيسى لم يكن يرغب في وضع دين
جديد ، بل كان يرغب في تطهير الدين اليهودي وتدعيمه(٥) . وكثر اليهود
القراءون في فلسطين ، ومصر ، وأسبانيا ، ثم نقص في القرن الثاني عشر ،
ولم يبق منهم الآن إلا أقلية آخذة في الانقراض في تركيا وجنوبي روسيا ؛
وببلاد العرب . ونبذ القراءون في القرن التاسع ما كان ينادى به عنن من
تفسير حرفي لنصوص الشريعة ، وقالوا إن بعث الأجسام وما جاء
في الكتاب المقدس من أوصاف جسمانية لله ، يجب أن تؤخذ على سبيل
الحجاز ، ولعلمهم في قولهم هذا كانوا متأثرين بأراء المعتزلة المسلمين .

(*) من اللفظ الأرامي قرا أي النص وهذا اللفظ نفسه مشتق من قرا ، ومعناه
أيضا القرآن .

فلما فعلوا هذا عاد اليهود الربانيون إلى القول بأخذ عبارات التلمود بنصها ، وقالوا إن ما ورد في الكتاب المقدس من عبارات أمثال « يد الله » وجاوس الله « يجب أن تؤخذ بمعناها الحقيقي ، بل إن بعضهم قد تغالى في هذا فقدر بالدقة مقاييس جسم الله ، وطول أطرافه ، ولحيته (٦) . ونشأت فئة قليلة من اليهود حرة التفكير منها صبي البلخي Chivi al-Balchi كانت تنادى بأن أسفار موسى الخمسة نفسها ليست شريعة واجبة الطاعة (٧) . في هذه البيئة التي تمتاز بالرخاء الاقتصادي ، والحرية الدينية ، والجدل العنيف أنجبت اليهودية أول فيلسوف يهودى ذائع الصيت في العصور الوسطى .

ولد سعديا بن يوسف في قرية من قرى الفيوم في عام ٨٩٢ . وشب في مصر وتزوج فيها ثم هاجر منها إلى فلسطين في عام ٩١٥ ، ثم هاجر بعدئذ إلى بابل . وما من شك في أنه كان طالبا مجدا ومعلما قديرا ، لأنه عين وهو شاب في السادسة والثلاثين من عمره جاوئا أى مديراً لكلية سورا . وشاهد ما أدخله القراءون والمتشككة من بدع في الدين اليهودى القديم ، فألى على نفسه أن يفعل لهذا الدين ما فعله المتكلمون للدين الإسلامى - فيبين أن هذا الدين القديم يتفق كل الاتفاق مع العقل والتاريخ . وأخرج سعديا في حياته القصيرة التي لم تتجاوز خمسين عاماً مقداراً ضخماً من المؤلفات - معظمها - لا يماثلها في سجل التفكير اليهودى في العصور الوسطى إلا مؤلفات ابن ميمون . ومن هذه المؤلفات « الأجران » وهو معجم آرامى للغة العبرية يعد أساساً للفلسفة العبرية ؛ ومنها « كتاب اللغة » وهو أقدم ما عرف من كتب في نحو اللغة العبرية . وقد ظلت ترجمته العربية للعهد القديم إلى يومنا هذا الترجمة التي يستخدمها جميع اليهود الذين يتكلمون اللغة العربية ، وإن شروحه لأسفار الكتاب المقدس « لتكاد تجعله » أعظم شارح للكتاب المقدس في جميع العصور (٨) ؛ ويعد « كتاب الأمانات والاعتقادات » (٩٣٣) أعظم رد في الدين اليهودى على الحارجين على هذا الدين .

ويؤمن سعديا بالوحي والتواتر معاً أى بالشريعة المكتوبة وغير المكتوبة ، ولكنه يؤمن أيضاً بالعقل ، ويطالب بأن يثبت استناداً إلى العقل صدق الوحي والتواتر . فإذا ما تعارضت نصوص الكتاب المقدس تعارضاً صريحاً مع حكم العقل ، فلنا أن نفترض أن النص المتعارض لا يقصد به أن تأخذه العقول الناضجة بحرفيته . كذلك يجب أن تؤخذ أوصاف الله الجسمانية على أنها مجاز لا حقيقة ؛ ذلك أن الله ليس إنساناً يتصف بما يتصف به البشر . ويدل نظام العالم وقوانينه على وجود خالق عاقل مدبر . وليس من العقل فى شىء أن يظن أن الله العاقل المدبر يعجز عن أن يثيب على الفضيلة ، ولكن الفضيلة ، كما هو واضح ، لا يثاب عليها دائماً فى هذه الحياة ؛ ومن ثم لا بد أن تكون هناك حياة أخرى تعوّض ما يبدو فى هذه الحياة الدنيا من ظلم ظاهرى ؛ ولعل آلام الصالحين فى هذه الدنيا ليست إلا عقاباً لبعض ما ارتكبوه من ذنوب حتى يدخلوا الجنة من فورهم بعد موتهم ، كما أن ما يظفر به الأشرار من نعم إنما هو مثوبة على أعمالهم الصالحة العارضة ، حتى ... ولكن الناس كلهم حتى الذين يقومون بأحسن الأعمال الصالحة فى هذا العالم وينالون فيه أعظم الخير والسعادة يحسون فى أعماق قلوبهم أن ثمة حالاً خيراً من حالهم هذه الواسعة الآمال القليلة المتعة ، وكيف يجوز لله الذى اقتضت حكمته العظيمة خلق هذا العالم العجيب أن يبعث هذه الآمال فى النفس إذا لم يشأ أن تتحقق؟ (٩) ، ولقد تأثر سعديا إلى حد ما بفقهاء الإسلام وسار على نهجهم فى الشرح والإيضاح ، بل إنه استعار منهم فى بعض الأحيان أساليب الجدل والنقاش . وقد انتشرت آراؤه فى جميع أنحاء العالم اليهودية وتأثر بها ابن ميمون ، وهل أدل على هذا من قول ابن ميمون : « لولا سعديا لكادت التوراة أن تختفى من الوجود » (١٠) .

وهنا يجب أن نقر بأن سعديا كان رجلاً فظاً إلى حد ما ، وأن نزاعه مع الإجازيلارك داود بن زكاي قد أضر بيهود بابل . وكانت نتيجة هذا النزاع أن

أعلن داود في عام ٩٣٠ حرمان سعديا ، وأن أعلن سعديا حرمان داود .
ولما مات داود في عام ٩٤٠ نَصَّب سعديا إجزيلاركاً جديداً ، ولكن
المسلمين قتلوا هذا الإجزيلارك لأنه طعن في النبي محمد . فما كان من سعديا
إلا أن عين ابن القليل خلفاً ، وقتل هذا الشاب أيضاً ؛ وحينئذ قرر اليهود
بعد أن فت في عضدهم على هذا النحو أن يبقوا هذا المنصب شاغراً ،
وبذلك انتهى عهد الإجزيلاركية البابلية الذي دام سبعة قرون . وكان تفكك
الخلافة العباسية في بغداد وقيام دول إسلامية مستقلة في مصر ، وشمال
أفريقية ، وأسبانيا سبباً في ضعف الروابط بين يهود آسيا وأفريقية وأوربا
وأصيب يهود بابل بما أصيب به الإسلام في الشرق من ضعف اقتصادي
بعد القرن العاشر الميلادي ، فأغلقت كلية سورا أبوابها في عام ١٠٣٤
وحذت حذوها بمديثا بعد أربع سنين ، وانتهى عهد الجاوثية في عام ١٠٤٠ ؛
وزادت الحروب الصليبية الهوة بين يهود بابل ويهود مصر وأوربا ، ولما
خرب المغول بغداد في عام ١٢٢٨ كادت الجالية اليهودية البابلية أن تختفي
من صفحات التاريخ .

وكان كثيرون من يهود الشرق قد هاجروا قبل هذه الكوارث إلى
أقصى آسيا الشرقية ، وبلاد العرب ، ومصر ، وشمال أفريقيا
وأوربا ؛ فكان في سيلان ٢٣٠٠٠٠ عبراني في عام ١١٦٥ (١١) ، وبقيت
في بلاد العرب عدة جاليات يهودية بعد أيام النبي ؛ ولما فتح عمرو بن
العاص مصر في عام ٦٤١ كتب إلى الخليفة يقول إن في الإسكندرية أربعة
آلاف من اليهود « أهل الذمة » . ولما اتسعت مدينة القاهرة ازداد عدد
من فيها من اليهود أصحاب العقيدة القديمة والقرائين . وكان يهود مصر
يستمتعون بالحكم الذاتي في شئونهم الداخلية بزعامة النجيد أو أمير اليهود ،
وازدادت ثروتهم من الأعمال التجارية وارتفعوا إلى المناصب العالية في
حكومات الدول الإسلامية (١٢) . وتقول إحدى الروايات إن أربعة من أحبار
اليهود أبحروا على ظهر إحدى السفن من پارى Bari في إيطاليا ، ولكن

أحد أمراء البحر الأندلسيين المسلمين أسر سفينتهم وباعهم بيع الرقيق ، فبيع
الحبر موسى وابنه حنوخ في قرطبة ، وبيع سحرية في الإسكندرية ، وبيع
الحبر هوسيل في القيروان : ثم أعتق كل واحد من هؤلاء الأبحار ، كما تقول
الرواية ، وأنشأ في المدينة التي بيع فيها مجمعاً علمياً . والشائع على الألسنة ،
وإن لم يكن هذا مؤكداً ، أنهم كانوا من علماء سورا ؛ وأياً كانت نشأتهم
فقد نقلوا العلم من يهود الشرق إلى الغرب ؛ وبينما كانت اليهودية في آسية
آخذة في الضعف بدأت أيام عزها وسعادتها في مصر وأسبانيا .

الفصل الثاني

الجماعات اليهودية في أوروبا

اتخذ اليهود طريقهم إلى بلاد روسيا في العصور الوسطى من بابل وفارس مجتازين ما وراء جيحون والقوقاز ، وإلى ساحل البحر الأسود من آسية الصغرى مجتازين القسطنطينية . وظل اليهود في تلك العاصمة يستمتعون بالرخاء النسكد من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر . وكان في بلاد اليونان جماعات يهودية كبيرة وبخاصة في طيبة حيث كانت لمنسوجاتهم الحريرية شهرة عظيمة . وهاجر اليهود شمالاً إلى بلاد البلقان مجتازين تساليا وتراقية ومقدونية ، ثم ساروا بمحاذاة نهر الدانوب إلى بلاد المجر . وجاءت حفنة من التجار العبرانيين من ألمانيا إلى بولندا في القرن العاشر لأن اليهود كانوا في ألمانيا من قبل ميلاد المسيح . فكان في Metz ، واسپير Speyer ، ومينز Mainz ، وورمز Worms ، واستر سبورج Strassbourg ، وفرنكفورت Fraakfort . وكولوني جاليات يهودية كبيرة في القرن التاسع ، وإن كانت هذه الجاليات قد شغلتها التجارة وما تستلزمه من كثرة الترحال فلم يكن لها شأن كبير في تاريخ اليهود الثقافي . ومع هذا فقد أنشأ جرشوم بن يهودا (٩٦٠ - ١٠٢٧) مجعاً علمياً للأخبار في مينز وكتب بالعبرانية شرحاً للتلמוד ، وبلغ من سلطانه أن كان يهود ألمانيا يستفتونه فيما يعرض لهم من مسائل في شريعة التلمود بدل أن يستفتوا في ذلك جاونيم بابل .

وكان في إنجلترا يهود في عام ٦٩١ (١٣) ، وجاء إليهم عدد آخر كبير منهم مع وليم الفاتح William the Conqueror ، وبسط عليهم النورمان الفاتحون في أول الأمر حمايتهم لما كانوا يمدونهم به من رعوس الأموال وما كانوا يقومون به من

من جباية الإيراد . وكانت جماعاتهم المقيمة في لندن ، ونورتش Norwich ، ويورك ، وغيرها من المراكز الإنجليزية خارجة عن اختصاص ولاية الأمور المحليين في شئونها القانونية ، فكانت لا تخضع إلا للملوك أنفسهم . ووسعت هذه العزلة التفضيحية الموروثة بين المسيحيين واليهود ، وكانت سبباً من أسباب المذابح المدبرة التي حدثت في القرن الثاني عشر .

وكان في غالة تجار يهود من عهد يوليوس قيصر ، وقبل أن يحل عام ٦٠٠ بعد الميلاد وجدت جاليات يهودية في جميع المدن الكبرى في غالة ، واضطهدهم الملوك المروثنجيون بوحشية ، وأمرهم كليريك Chilperic أن يعتنقوا الدين المسيحي على بكرة أبيهم وإلا فقتلهم (٥٨١) (١٤) ، أما شارلمان فإنه بسط عليهم حمايته لأنه وجد فيهم زراعاً ، وصناعاً ، وأطباء ، ورجال مال نافعين ، واختار يهودياً ليكون طبيبه الخاص ، وإن كان قد أبقى على القوانين التي تحرم اليهود من بعض الحقوق التي يتمتع بها غيرهم . وتقول إحدى الروايات المشكوك في صحتها إنه استقدم في عام ٧٨٧ أسيرة قلو نيموس Kalo yn os من لكا Lucea إلى مينز ليشجع الدراسات اليهودية في دول الفرنجة ، ثم أرسل في عام ٧٩٧ يهودياً مترجماً أو مفسراً مع بعثة سياسية إلى هارون الرشيد . وكان لويس التقي Louis the Pious يعيل إلى اليهود لعملهم في تنشيط التجارة ، وعين موظفاً خاصاً للدفاع عن حقوقهم ، واستمتع اليهود في فرنسا في القرنين التاسع والعاشر بقدر من الرخاء والطمأنينة لم يستمتعوا به بعدئذ قبل أيام الثورة الفرنسية ، وذلك رغم ما كان يذاع ضدهم من الأقاصيص ، وما يفرض عليهم من القيود القانونية ، وما يصيبهم أحياناً من الاضطهاد القليل (١٥) . وكانت في إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها جاليات يهودية منتشرة من تراني Trani إلى البندقية وميلان ، وكان اليهود كثيرون في بدوا بنوع خاص ، ولعلمهم كان لهم أثر في نشر فلسفة ابن رشد في جامعتها . وكان في سالرنو Salerno ، حيث أنشئت في البلاد المسيحية اللاتينية أولى مدارس الطب في

العصور الوسطى ، ستمائة يهودى^(١٦) . منهم عدد من مشهورى الأطباء .
وكان فى بلاط فردريك الثانى فى فوجيا Foggia طائفة من العلماء اليهود ،
وعين البابا الكسندر الثالث (١١٥٩ - ١١٨١) عدداً من اليهود فى المناصب
الكبرى فى بيته^(١٧) ، ولكن فردريك اشترك مع البابا جريجورى التاسع فى
اتخاذ إجراءات ظالمة ضد يهود إيطاليا .

وكان يهود أسبانيا يلقبون أنفسهم سفرديم Sephardim ، ويرجعون
بأصولهم إلى قبيلة يهوذا الملكية^(*) ؛ ولما اعتنق الملك ريكارد Recared
الدين المسيحى الأصيل ، انضمت حكومة القوط الغربيين إلى رجال الدين
الأقوياء أتباع الكنيسة الأسبانية فى مضايقة اليهود وتنغيص حياتهم عليهم ،
فحرمت عليهم المناصب العامة ، ومنعوا من الزواج بالمسيحيات أو اقتناء
أرقاء مسيحين . وأمر الملك سيزبوت Sisebut جميع اليهود أن يعتنقوا
المسيحية أو أن يخرجوا من البلاد (٦١٣) ، وألغى الملك الذى خلفه على
العرش هذا الأمر ، ولكن مجلس طليطلة الذى عقد فى عام ٦٣٣ أصدر
قراراً ينص على أن اليهود الذين عمدوا ثم عادوا إلى الدين اليهودى يجب
أن يفصلوا عن أبنائهم ، وأن يباعوا أرقاء . وأعاد الملك شنتيلا Chintila
العمل بمرسوم سيزبوت (٦٣٥) ؛ وحرّم الملك إچيكا Egica على اليهود
امتلاك الأراضى كما حرّم كل عمل مالى وتجارى بين أى مسيحي ويهودى
(٦٩٣) . وكانت نتيجة هذا أن ساعد اليهود العرب حين جاءوا أسبانيا
فاتحين فى كل خطوة من خطوات الفتح .

(*) يطلق اسم سفرد Sepharad فى سفر عبديّة (الكتاب الأول الفصل ٢٠) على
إقليم (لعله آسية الصغرى) نقل إليه الملك نايونخذ نصر (٥٩٧ ق . م) بعض اليهود ، ثم
أطلق هذا اللفظ بعدئذ على بلاد أسبانيا . وكان يهود ألمانيا يسمون تسمية غير دقيقة أشكنازيم
لانتسابهم المزعوم إلى أشكناز Ashkenaz حفيد يافث بن نوح (سفو التكوين ، الأصحاح
العاشر ، الآية ٣) .

وأراد الفاتحون أن يعمرروا البلاد فدعوا إلى الهجرة إليها ، وقدم إليها
فيمن قدم خمسون ألف يهودى من آسية وأفريقية^(١٨) ، وكاد سكان بعض
المدن مثل أليسانة أن يكونوا كلهم من اليهود . ولما أن تحرر اليهود
في أسبانيا الإسلامية من القيود المفروضة على نشاطهم الاقتصادى انتشروا
في جميع ميادين الزراعة ، والصناعة ، والمال ، والمناصب العامة ؛ ولبسوا
ثياب العرب ، وتكلموا بلغتهم ، واتبعوا عاداتهم ، فلبسوا العمامة والأثواب
الحريرية الفصفاضة ، وركبوا العربات حتى أصبح من العسير تمييزهم من تى
عمومتهم الساميين . واستخدم عدد من اليهود أطباء في بلاط الخلفاء والأمراء
وعين أحد هؤلاء الأطباء مستشاراً لأعظم خليفة من خلفاء قرطبة .

فقد كان حسداى بن شبروط (٩١٥ - ٩٧٠) بالنسبة لعبد الرحمن
الثالث ماكانه نظام الملك في القرن التالى لملك شاه . وقد ولد حسداى في
أسرة ابن عزرا المثرية المثقفة ؛ وعلمه أبوه اللغات العبرية ، والعربية ،
واللاتينية ؛ ودرس الطب ، وغيره من العلوم في قرطبة ، وداوى الخليفة
من أمراضه ، وأظهر من واسع المعرفة وعظيم الحكمة في الأمور السياسية
ما جعل الخليفة يعينه في الهيئة الدبلوماسية للدولة ، ولما يتجاوز الخامسة
والعشرين من عمره كما يلوح . ثم عهدت إليه تباعاً أعمال أخرى ذات تبعات
متزايدة في حياة الدولة المالية والتجارية . على أنه لم يكن له لقب رسمى لأن
الخليفة تردد في منحه رسمياً لقب وزير خشية أن يثير عليه النفوس . ولكن
حسداى قام بمهام منصبه الكثيرة بكياسة أكسبته محبة العرب ، واليهود ،
والمسيحيين على السواء ، وقد شجع العلوم والآداب ، ومنح الطلاب الهبات
المالية والكتب بلاثن ، وجمع حوله ندوة من الشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة ؛
فلما مات تنافس المسلمون واليهود في تكريم ذكراه .

وكان ثمة رجال غيره في أنحاء أخرى من أسبانيا الإسلامية وإن لم يبلغوا ما بلغه . ففي أشبيلية دعا المعتمد إلى بلاطه إسحق بن بروك العالم والفلكي ، ومنحه لقب أمير ، وجعله حاكماً أكبر لكل المجامع اليهودية فيها (١٩) ، وفي غرناطة نafs شمویل هلوی ابن نجدلا Samuel Halevi ibn Naghdela حسداى ابن شبروط في سلطانه وحكمته وفاقه في علمه . وقد ولد شمویل في قرطبة عام ٩٩٣ ونشأ فيها ، وجمع بين دراسة التلمود والأدب العربي ، وجمع بين هذين وبين الاتجار في التوابل . ولما أن سقطت قرطبة في أيدي البربر ، انتقل إلى مالقة ، وفيها زاد دخله القليل بكتابة العروض إلى ملك غرناطة . وأعجب وزير الملك بما كانت عليه هذه العروض من جمال الخظ وحسن الأسلوب فزار شمویل ، وصحبته إلى غرناطة ، وأسكنه في قصر الحمراء ، وجعله أمين سره . وما لبث شمویل أن أصبح أيضاً مستشاره ، وكان مما قاله الوزير نفسه أنه إذا أشار شمویل بشيء فإن صوت الله يسمع فيما يشير به (٢٠) . وأوصى الوزير وهو على فراش الموت أن يخلفه شمویل ، وبذلك أصبح شمویل في عام ١٠٢٧ اليهودى الوحيد الذى شغل منصب وزير في دولة إسلامية وحظى بهذا اللقب . ومما يسر هذا الأمر في غرناطة أكثر منه في أى بلد آخر أن نصف سكان هذه المدينة في القرن الحادى عشر كانوا يهوداً (٢٠) . وسرعان ما رحب العرب بهذا الاختيار ، لأن الدولة الصغيرة ازدهرت في عهد شمویل من النواحي المالية ، والسياسية ، والثقافية . وكان هو نفسه عالماً ، وشاعراً ، ونابغة في الفلك ، والرياضة ، واللغات ، يعرف سبعمئتها ، وقد ألف عشرين رسالة في النحو (معظمها بالعبرية) وعدة مجلدات في الشعر والفلسفة ، ومقدمة للتلمود ، ومجموعة من الأدب العبرى . وكان يقسم ماله مع غيره من الشعراء ، وأنجد الشاعر والفيلسوف ابن جبيرول ، وأمد بالمال طائفة من شباب الطلاب ، وأعان الجماعات اليهودية في قارات ثلاث . وكان وهو وزير الملك حاكماً لليهود ، يحاضر عن التلمود . ولقبه بنوملته - اعترافاً منهم

بفضله - بالنجيد - الأمير (في إسرائيل) . ولما توفي عام ١٠٥٥ خلفه في الوزارة ، والنجادة ابنه يوسف بن نجدلا .

وكانت هذه القرون الثلاثة - العاشر ، والحادي عشر ، والثاني عشر - هي العصر الذهبي ليهود أسبانيا ، وأسعد عصور التاريخ العبري الوسيط ، وأعظمها ثمرة . ولما أن افتدى موسى بن شنوك (المتوفى عام ٩٦٥ وأحد المهاجرين من باري) من الأسر في قرطبة ، أنشأ فيها بمعونة حسداى مجمعا علميا ، ما لبث أن أصبحت له الزعامة الفعلية على يهود العالم كله . وافتتحت مجامع مثله في أليسانة ، وطليطالة ، وبرشلونة ، وغرناطة . . . ، وبينما كادت المدارس اليهودية في الشرق تقصر نشاطها على التعليم الديني ، كانت هذه المدارس الأسبانية تعلم فيها تعلمه الأدب : والموسيقى ، والرياضيات ، والهيئة ، والطب ، والفلسفة^(٢١) . وبفضل هذا التعليم نالت الطبقات العليا من يهود أسبانيا في ذلك الوقت سعة وعمقا في الثقافة والظرف لم ينلها إلا معاصروهم من المسلمين ، والبيزنطيين ، والصينيين . وكان مما يسر بل الرجل المؤثر أو صاحب المركز السياسي بالعار ألا يلم بالتاريخ ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة ، والشعر^(٢٢) . ونشأت في ذلك الوقت أرسقراطية يهودية تزردان بمن فيها من النساء الحسان ؛ ولعلها قد أفرطت في الاعتداد بتفوقها على غيرها ، ولكن كان يقابل هذا الاعتداد ويخفف من وقعه اعتقادها أن شرف المحتد وكثرة الثراء يفرضان على صاحبهما واجبات من السخاء والفضل .

ويمكننا أن نوؤرخ بداية تدهور يهود أسبانيا من سقوط يوسف بن نجدلا . ذلك أنه كان يخدم الملك بكفاية لا تكاد تقل عن كفاية أبيه ، ولكنه لم يكن له ما كان لأبيه من تواضع وكياسة جعلتا سكان البلاد - ونصفهم من المسلمين الأندلسيين - يرتضون أن يتولى أمورهم يهودى . من ذلك أنه جمع السلطة كلها في يده ، وتشبه بالملك في لباسه ، وسخر من القرآن . وتحدث الناس بأنه لا يؤمن

بالله . ولهذا ثار العرب والبربر في عام ١٠٦٦ واصلبوا يوسف ، وذبخوا أربعة آلاف من يهود غرناطة ، ونهبوا بيوتهم ، وأرغم الباقون من اليهود على بيع أراضيهم ومغادرة البلاد . وجاء المرابطون من أفريقية بعد عشرين عاما من ذلك الوقت متأججة صدورهم بالحماسة الدينية و متمسكين بأصول السنة ، وانتهى بقدمهم عصر أسبانيا الإسلامية الزاهر الطويل الأمد . ونادى أحد رجال الدين من المسلمين أن اليهود قد وعدوا النبي بأن يعتنقوا الإسلام بعد خمسمائة عام من الهجرة ، إذا لم يظهر في ذلك الوقت مسيحيهم المنقذ المنتظر ، وأن هذه الأعوام الخمسمائة تنتهي بالحساب الهجري في عام ١١٠٧ ؛ وطلب الأمير يوسف إلى جميع يهود أسبانيا أن يعتنقوا الإسلام ، ولكنه أعفاهم من هذا الأمر حين أدوا لبيت المال مبالغ طائلة (٢٣) . ولما خلف الموحدون المرابطين في حكم مراكش وبلاد الأندلس الإسلامية (١١٤٨) ، خيروا اليهود والمسيحيين كما خير الملك سيز بوت اليهود قبل خمسمائة وخمسة وثلاثين عاما من ذلك الوقت بين الارتداد عن دينهم أو الخروج من البلاد . وتظاهر كثيرون من اليهود باعتناق الإسلام ، وهاجر كثيرون منهم مع المسيحيين إلى شمالي أسبانيا .

وهنا وجد اليهود في بادئ الأمر من التسامح العظيم ما لا يقل جلالا عما ظلوا يلقونه مدى أربعة قرون تحت حكم المسلمين . وأحسن الفنسو السادس والسابع ملكا قشتاله (الأذفونش) معاملة اليهود ، وجعلهم هم والمسيحيين سواء أمام القانون ، ولما قامت حركة مناهضة للسامية (١١٠٧) في طليطلة ، حيث كان ٧٢٠٠٠ يهودي ، قمعها بصرامة (٢٤) . وحدث في أرغونة مثل هذا التآلف بين الديانتين ، الأم والابنة ، وبلغ من هذا التآلف أن دعا الملك جيمس الأول اليهود أن يستوطنوا ميورقة ، وقطلونية ، وبلنسية ، وكثيراً ما كان يمنح المستوطنين اليهود بيوتا وأرضين من غير ثمن (٢٥) . وكانت لهم في برشلونة السيطرة على التجارة في القرن الثاني عشر ، كما كان لهم نصف أراضيها الزراعية (٢٦) . نعم إن يهود

أسبانيا قد فرضت عليهم ضرائب باهظة ، ولكنهم مع ذلك أثروا ، واستمتعوا فيها بالاستقلال في شئونهم الداخلية . وكانت التجارة تتبادل بحرية بين المسيحيين واليهود والمسلمين الأندلسيين ، وكان بنو الأديان الثلاثة يتبادلون الهدايا في الأعياد ، وكان بعض الملوك من حين إلى حين يشترك بالمال في بناء المعابد اليهودية (٢٧) ، وكان في وسع الإنسان أن يجد بين عامي ١٠٨٥ و ١٤٩٢ نفسها يهودا يشغلون المناصب الكبرى في دول أسبانيا المسيحية . منهم القائمون على شئون المال ومنهم الدبلوماسيون ، ومنهم الوزراء أحياناً (٢٨) . واشترك رجال الدين المسيحيون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في هذه الألفة المسيحية (٢٩) .

وكانت بداية عدم التسامح الديني بين اليهود أنفسهم . ذلك أن يهودا ابن عزرا المتولى شئون قصر ألفونسو السابع ملك ليون وقتشالة وجه في عام ١١٤٩ قوة حكومة مليكة ضد اليهود القرائين في طليطلة . ولسنا نعرف تفاصيل ما حدث وقتئذ ، ولكن اليهود القرائين الأسبان الذين كانوا إلى ذلك الحين طائفة كبيرة لم يعد يسمع لهم خبر (٣٠) . ودخل بعض الصليبيين أسبانيا في عام ١٢١٢ ليساعدوا أهلها على طرد المسلمين منها ، وكانوا في أغلب الأحوال يحسنون معاملة اليهود ، ولما أن اعتدت طائفة منهم على يهود طليطلة وقتلت كثيرين منهم ، هب أهل المدينة المسيحيون للدفاع عن مواطنيهم ، ووضعوا حداً لاضطهادهم (٣١) ، وأدخل ألفونسو العاشر ملك قشتالة بعض المواد المجحفة باليهود في قانونه الصادر عام ١٢٦٥ ، ولكن هذا القانون لم يطبق حتى عام ١٣٤٨ ، وكان ألفونسو في ذلك الوقت يستخدم طبيياً وخازناً لبيت المال يهودياً ، وأهدى إلى يهود أشبيلية ثلاثة من مساجد المسلمين ليجعلوها معابد لهم (٣٢) ، واستمتع بما خلعه العلماء اليهود والمسلمون على حكمه اللطيف من مجد . ولما احتاجت مغامرات بيدرو الثالث pedro ملك أرغونة إلى فرض الضرائب الفادحة على رعاياه ، كان وزير ماليته وعدد آخر من موظفيه يهودا ، ولما ثار أعيان البلاد ومدنها على الملكية ، اضطرت الملك

إلى إقصاء أعوانه اليهود عن مناصب الدولة ، وتوقيع قرار أصدره مجلس الكورتير Cortes (١٢٨٣) بالألّا يعين بعد ذلك الوقت أى يهودى فى المناصب الحكومية .

وكانت خاتمة عهد التسامح الدينى حين أصدر مجلس زمورا Zamora الدينى (١٣١٣) قراراً بأن يلبس اليهود شارة تميزهم من غيرهم ، وألا يختلط اليهود بالمسيحيين ، ويحرم على المسيحيين استخدام أطباء من اليهود وعلى اليهود أن يكون لهم نخدم مسيحيون (٣٢) .

الفصل الثالث

الحياة اليهودية في البلاد المسيحية

١ - الحكومة

لم تحتم المدن المسيحية في العصور الوسطى - إذا استثنينا بالرم وقليلاً من المدن الأسبانية - أن يعيش من فيها من اليهود منعزلين عن سائر السكان . لكن اليهود كانوا في العادة يعيشون في عزلة اختيارية عن غيرهم من الأهلين لتيسر لهم هذه العزلة حياتهم الاجتماعية وسلامتهم الجسمية ووحدهم الدينية . وكان كنيسهم مركز الحى اليهودى الجغرافى ، والاجتماعى ، والاقتصادى ، يجتذب إليه معظم مساكن اليهود ، ولهذا ازدهت المساكن حوله ازدهاماً كبيراً ، وأضر ذلك الازدحام بالصحة العامة والخاصة . وكانت الأحياء اليهودية في أسبانيا تحتوى على مساكن جميلة وعمارات كما تحتوى على أكواخ قدرة ، أما في غيرها من بلاد أوروبا فكادت المساكن أن تكون أحياء قدرة وبيئة مزدهمة بالسكان (٣٤) .

وكانت الجماعات اليهودية طوائف منعزلة شبه ديمقراطية وسط عالم ملكى مطلق ، إذا استثنينا من هذا التعميم ما للثراء من أثر في الانتخابات وفي الاختيار للوظائف في جميع أنحاء العالم . وكان دافعوا الضرائب من الجماعات اليهودية يختارون أحرار الكنيس وموظفيه . وكانت فئة قليلة العدد من الكبار المنتخبين تكون بيت الدين أو المحكمة الشعبية ؛ وهذه المحكمة هي التي كانت تجبى الضرائب ، وتحدد الأثمان ، وتتولى القضاء ، وتصدر القرارات الخاصة بالطعام ، والرقص ، والأخلاق ، والملبس ، ولم تكن هذه القرارات تطاع على الدوام . وكان من حقها

أن تحاكم من يعتدون على القانون اليهودي من اليهود أنفسهم ، وكان لها موظفون ينفذون أوامرها ، وكانت العقوبات التي توقعها تختلف من الغرامات إلى الحرمان الديني أو النفي ، وقلما كان الحكم بالإعدام من اختصاص بيت الدين أو كان من العقوبات التي توقعها ؛ وكانت المحكمة اليهودية تستعيض عن هذا الإعدام بالحرمان التام ؛ يصدر في احتفال فخم مربع توجه فيه التهم ، وتصب فيه اللعنات ، وتطفأ فيه الشموع واحدة بعد واحدة رمزاً إلى موت المجرم الروحي . وكان اليهود يسرفون في استخدام الحرمان ، كما كان يفرض فيه المسيحيون ، ولهذا فقدت هذه العقوبة ما كان لها من رهبة وتأثير . وكان رؤساء اليهود الدينيون - كما كان رؤساء الكنيسة المسيحيون - يضطهدون الملاحدة ، ويحرمونهم من حماية القانون ، ويحرقون كتبهم في حالات نادرة (٣٥).

ولم تكن الجماعات اليهودية في الأحوال العادية خاضعة للسلطات المحلية وكان سيدها الوحيد هو الملك ، تؤدي إليه المال بسخاء لتبتاع منه الميثاق الذي يحمي حقوقها الدينية والاقتصادية ؛ وكانت فيما بعد تؤدي المال إلى الحكومات المحلية المحررة لتؤيد استقلال اليهود الذاتي بشؤونهم الداخلية . إلا أن اليهود مع ذلك . كانوا يخضعون لقوانين الدولة . وجعلوا طاعة هذه القوانين مبدأ من مبادئهم الواجبة الطاعة ؛ وقد ورد في التلمود أن « قانون البلد شريعة » (٣٦) ، وتقول إحدى فقراته : « صاوا لسلامة الحكومة ، فلولا خوف الناس منها لا يتلع بعضهم بعضاً » (٣٧) .

وكانت الدولة تجبي من اليهود « الفرضة » أو ضريبة الروءس ، وعوائد الأملاك ، وكانت تصل أحياناً إلى ٣٣٪ من قيمتها ، وضرائب على اللحم ، والحمور ، والحلى ، والواردات ، والصادرات ؛ فضلاً عن التبرعات « الاختيارية » للمساعدة على تمويل الحروب ، أو تتويج الملوك ، أو « مقدمهم » أو رحلاتهم . وكان اليهود الإنجليز البالغ عددهم في القان الثاني عشر ١٪ في المائة من السكان

يؤدون للدولة ٨٪ من الضرائب العامة . وقد أدوا هم رُبع ما جمع من المال لحرب رتشارد الأول الصليبية ، وأدوا فيما بينهم ٥٠٠٠٠ مارك ليفتدوه من أسر الألمان وهو ثلاثة أمثال ما أدته مدينة لندن (٣٨) . كذلك كانت الهيئات اليهودية تفرض ضرائب أخرى على اليهود ، كما كان يطلب إليهم من حين إلى حين صدقات وإعانات للتعليم ولمساعدة اليهود المضطهدين في فلسطين . وكان الملك في أى وقت من الأوقات يصادر أملاك « يهوده » بعضها أو كلها لسبب أو لغير سبب ؛ ونقول يهوده لأنهم كانوا جميعاً بمقتضى قانون الإقطاع « رجال » الملك . وكان الملك إذا مات ينتهى العهد الذى قطعته بحماية اليهود ، ولم يكن من يخلفه على العرش يرضى بأن يجدد العهد إلا إذا قدم إليه قدر كبير من المال ، قد يبلغ في بعض الأحيان ثلث جميع ما يمتلكه اليهود في الدولة (٣٩) . من ذلك ما فعله ألبرخت الثالث Albrecht III مارجراف برندنبرج Margrave of Brandenburg في عام ١٤٦٣ إذ أعلن أن كل ملك ألماني جديد « يجوز له ، عملاً بالسنن القديمة ، إما أن يحرق جميع اليهود ، أو يظهر لهم رحمته ، فينقذ حياتهم ، ويأخذ ثلث أملاكهم » (٤٠) ولقد لخص براكتن Bracton كبير المشترعين اليهود في القرن الثالث عشر هذه النقطة بعبارة موجزة فقال : « ليس من حق اليهودى أن يكون له ملك خاص ، لأن ما يحصل عليه أيا كان نوعه لا يحصل عليه لنفسه بل للملك » (٤١) .

٢ - الشؤون الاقتصادية

وكانت هناك فضلا عن هذه المتاعب السياسية قيود اقتصادية . نعم إن اليهود لم يكونوا ممنوعون بحكم القانون من تملك العقار ، ولم يكونوا ممنوعون من تملكه بوجه عام ، وقد كانوا في أوقات مختلفة في العصور الوسطى بتملكون أراضي واسعة في بلاد الأندلس الإسلامية وأسبانيا المسيحية ، وفي صقلية ، وسيليزيا ، وپولندا ،

وإنجلترا ، وفرنسا (٤٢) ؛ ولكن ظروف الحياة جعلت هذا التملك أمراً غير ميسر من الوجهة العملية يزداد صعوبة على مر الأيام . ذلك أن اليهودى ، وقد حرمت عليه الشريعة المسيحية أن يستأجر أرقاء مسيحيين ، وحرمت عليه الشريعة اليهودية أن يستأجر أرقاء من اليهود ، لم يكن أمامه إلا أن يفلح أرضه باستئجار عمال أحرار يصعب الحصول عليهم ويتطلب الاحتفاظ بهم نفقات طائلة . يضاف إلى هذا أن الشريعة اليهودية تحرم على اليهودى أن يعمل فى يوم السبت ، وأن الشريعة المسيحية كانت عادة تمنعه من العمل فى يوم الأحد ، وكان هذا التعطل عقبة كبيرة فى سبيله ؛ وكانت العادات أو القوانين الإقطاعية تجعل من المستحيل على اليهودى أن يكون له منزلة فى النظام الاقتصادى لأن هذه المنزلة تتطلب منه أن يقسم يمين الولاء للمسيحية ، وأن يقوم بالخدمة العسكرية ، مع أن شرائع الدول المسيحية كلها تقريباً تحرم على اليهود حمل السلاح (٤٣) . ولما حكم القوط الغربيون أسبانيا ألغى الملك سيزبوت جميع ما منحه أسلافه من الأرض لليهود ، « وأمم » الملك إچيكا جميع أملاك اليهود التى كانت ملكاً للمسيحيين فى أى وقت من الأوقات ، وفى عام ١٢٩٣ حرم مجلس الكورتيز فى بلد الوليد بيع الأراضى لليهود ؛ وفوق هذا كله فإن ما كان يتعرض له اليهود فى كل وقت من الأوقات من احتمال طردهم من البلاد ، أو مهاجمتهم ، قد أقنعهم بعد القرن التاسع أن يتجنبوا امتلاك الأراضين أو العيش فى الريف . كل هذه الصعاب ثببت همّة اليهود فى الاشتغال بالزراعة ومالت بهم إلى حياة الحضر ، وإلى العمل فى الصناعة والتجارة والشئون المالية .

ونشط اليهود فى الشرق الأدنى وجنوبى أوروبا فى الصناعة ، والحق أن اليهود كانوا فى معظم الأحوال هم الذين أدخلوا الفن الصناعى الرافى من بلاد الإسلام إلى بيزنطية وإلى البلاد الغربية ، ولقد وجد بنيامين التطيلي Benjamin of Tudela مئات من صانعى الزجاج فى أنطاكية ، وصور ؛ واشتهر اليهود فى مصر وبلاد

اليونان بجمال منسوجاتهم المصبوغة والمطرزة وتفوقها على سائر المنسوجات من
توعها ، وكان فرديك الثاني في القرن الثالث عشر لا بعد يستقدم إلى بلاده
الصناع اليهود ليشر فوا على صناعة نسيج الحرير التابعة للدولة في صقلية ؛
وكان اليهود في تلك الجزيرة وفي غيرها من البلاد يشتغلون في الصناعات
المعدنية وبخاصة في الصباغة وصناعة الحلي ، وظلوا يعملون في مناجم
القصدير في كورنوول إلى عام ١٢٩٠ (٤٤) . وانتظم الصناع العبرانيون
في أوربا الجنوبية في طوائف للحرف قوية ، وكانوا ينافسون الصناع
المسيحيين منافسة شديدة ، أما في أوربا الشمالية فقد احتكرت طوائف
أرباب الحرف المسيحية كثيراً من الصناعات ؛ وأخذت الدول المختلفة
واحدة في إثر واحدة تحرم على اليهود الاشتغال حدادين ، ونجارين ،
ونخياطين ، وحدائين ، وطحانين ، ونخبازين ، وأطباء ؛ كما حرمت
عليهم بيع الخمر ، والدقيق ، والزبد ، والزيت في الأسواق (٤٥) ،
وابتباع مساكن لأنفسهم في أى مكان خارج عن الأحياء اليهودية .

وإزاء هذه القيود الثقيلة لجأ اليهود إلى التجارة وكان رب Rab ، العالم
التلمودى البابلى ، قد وضع لبني ملته شعاراً يدل على ثاقب فكره : « تاجر
بمائة فلورين تحصل على لحم وخمر ؛ أما إن استغللت هذا القدر نفسه
في الزراعة فأكبر ما تحصل عليه هو الخبز والملح » (٤٦) . وكان البائع
اليهودى الجائل معروفاً في كل مدينة وبلدة ، والتاجر اليهودى معروفاً
في كل سوق ومولد ؛ وكانت التجارة الدولية عملاً تخصصوا فيه ،
وكادوا أن يحتكروه قبل القرن الحادى عشر ، فكانت أحماهم ، وقوافلهم ،
وسفائنهم تجتاز الصحراوات ، والجبال ، والبحار ، وكانوا في معظم
الحالات يصحبون بضائعهم . وكانوا هم حلقة الاتصال التجارى بين بلاد
المسيحية والإسلام ، وبين أوربا وآسية ، وبين الصقلية والدول الغربية ؛
وكانوا هم القائمين بمعظم تجارة الرقيق (٤٧) ؛ وكان يعينهم على النجاح في التجارة
مهارتهم في تعلم اللغات ، وقدرة الجماعات اليهودية البعيدة بعضها عن بعض على

فهم اللغة العبرية ، وتشابه عادات اليهود وقوانينهم ، واستضافة الحى اليهودى فى كل مدينة لأى يهودى غريب . ولهذا استطاع بنيامين التطيلي أن يجتاز نصف العالم وأن يجد له أينما حل موطنًا . ويحدثنا ابن خرداذبة صاحب البريد فى الدولة العباسية عام ٨٧٠ فى كتابه المسالك والممالك عن التجار اليهود الذين يتكلمون اللغات الفارسية ، واليونانية ، والعربية ، والفرنجية ، والأسبانية ، والصقلبية ، ويصف المسالك البرية والبحرية التى ينتقلون بها من أسبانيا وإيطاليا إلى مصر ، والهند ، والصين (٤٨) . وكان هؤلاء التجار يحملون الخصيان ، والعبيد ، والحرير المطرز ، والفراء ، والسيوف إلى بلاد الشرق الأقصى ، ويعودون منها بالمسك ، والند ، والكافور ، والتوابل ، والمنسوجات الحريرية (٤٩) . ثم كان استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، واستيلاء أساطيل البندقية وجنوى على بلاد البحر المتوسط ، فأصبحت للتجار الإيطاليين ميزة على اليهود ، وقضى فى القرن الحادى عشر على زعامة اليهود التجارية . وكانت مدينة البندقية قد حرمت حتى قبل الحروب الصليبية نقل التجار اليهود على سفنها ، ولم يمض بعد ذلك لإقليم من الوقت حتى أغلقت عصبة المدن الهنسية *The Hansatic League* موانئها الواقعة على بحر الشمال والبحر البلطى فى وجه التجارة اليهودية (٥٠) ، وقبل أن يحل القرن الثانى عشر أضحت الجزء الأكبر من التجارة اليهودية تجارة محلية ، وكانت هذه التجارة حتى فى هذا المجال الضيق تحددها القوانين التى تحرم على اليهود أن يبيعوا عدة أنواع من السلع (٥١) .

فلم يكن لهم بد من العودة إلى شئون المال . ذلك أنهم وجدوا أنفسهم فى بيئة معادية لهم معرضين لأن يتلف عنف الجماهير أملاكهم الثابتة . أو أن يصادرهما الملوك الجشعون ، فأرغمتهم هذه الظروف على أن يجعوا مدخراتهم من النوع السائل السهل التحرك ؛ فعمدوا أولاً إلى ذلك العمل السهل وهو مبادلة النقد ، ثم انتقلوا منه إلى تلقى المال لاستثماره فى التجارة ، ثم إلى إفراض المال بالربا .

وكانت أسفار موسى (٥٢) والتلمود (٥٣) قد حرمت التعامل بالربا بين اليهود أنفسهم ولكنها لم تحرّمه بين اليهودي وغير اليهودي . ولما أضحت الحياة الاقتصادية أشد تعقيداً مما كانت قبل ، وصارت الحاجة إلى تمويل المشروعات أشد إلحاحاً نظراً لاتساع نطاق التجارة والصناعة ، أخذ اليهود يقرض بعضهم بعضاً المال عن طريق وسيط مسيحي (٥٤) أو عن طريق جعل صاحب المال شريكاً موصياً* في المشروع وأرباحه - وهي وسيلة أجازها أحبار اليهود ، وعدد كبير من رجال الدين المسيحيين (٥٥) . وإذا كان القرآن وكانت الكنيسة المسيحية يحرمان الربا ، وكان المقرضون المسيحيون لهذا السبب نادري الوجود قبل القرن الثالث عشر ، فإن المقرضين المسلمين والمسيحيين - ومنهم رجال الدين المسيحيون ، والكنايس والأديرة (٥٦) - كان هؤلاء المقرضون يلجأون إلى اليهود ليقرضوهم ما يحتاجونه من المال . وحسبنا دليلاً على هذا أن هارون اللانكاني Aaron of Lincoln هو الذي قدم ما يازم من المال لبناء تسعة أديرة سترسيه Cistercian ، وبناء دير سانت أولبنز St. Albans (٥٧) العظيم . ثم غزا رجال المصارف المسيحيون هذا الميدان في القرن الثالث عشر ، واستعانوا بالوسائل التي أوجدها وسار عليها اليهود ، وما لبثوا أن تفوقوا عليهم في الثراء واتساع نطاق الأعمال . « ولم يكن المرابي المسيحي أقل صرامة » من مياه اليهودي « وإن لم يكن أولهما في حاجة إلى حماية نفسه بالقدر الذي يحتاجه الثاني من خطر القتل والسلب والنهب » (٥٨) فكان كلاهما يشدد النكير على المدين بما عرف عن الدائنين الرومان من القسوة ، وكان الملاك يستغلونهم جميعاً لمصلحتهم الخاصة .

فكان المرابون جميعاً تفرض عليهم ضرائب باهظة ، وكان اليهود منهم يتعرضون من حين إلى حين إلى مصادرة أموالهم بأجمعها . وقد سار الملوك على سنة

(*) الشريك الموصى هو الذي يشترك بالمال لا بالعمل وينال نصيباً من الربح إذا كسبت التجارة ولا يخسر شيئاً من ماله إذا لم تربح ، ويسميه أهل الريف في مصر الشريك المرفوع . (المترجم)

السماح للمرابين بأن يتقاضوا رباً فاحشاً ، ثم يلجأون من حين إلى حين إلى اعتصار هذه المكاسب من أصحاب المال . وكان المرابون يتحملون نفقات كبيرة في سبيل الحصول على أموالهم ، وكثيراً ما كان الدائن يضطر إلى أداء الرشا للموظفين لكي يسمحوا له بالحصول على ما ماله (٥٩) . وحدث في عام ١١٩٨ حين كانت أوروبا تستعد للحرب الصليبية الرابعة أن أمر البابا إنوست الثالث Innocent III جميع الأمراء المسيحيين بإلغاء جميع فوائد القروض التي يطالب بها اليهود مدينتهم المسيحيين (٦٠) . وأعفى لويس التاسع ، ملك فرنسا القديس ، جميع رعاياه من ثلث ما كانوا مدينين به لليهود لكي « يستنزل الرحمة على روحه وروح أسلافه » (٦١) . وكان ملوك الإنجليز في بعض الظروف يصدرون خطابات إعفاء — ياغون بمقتضاها فائدة الدين أو رأس المال أو كليهما — لرعاياهم المدينين لليهود . ولم يكن من النادر أن يبيع الملوك هذه الخطابات ، وأن يدونوا في سجلاتهم المبالغ التي حصلوا عليها نظير وساطتهم في هذا البر بالإنسانية (٦٢) . وكانت الحكومة البريطانية تطلب أن ترسل إليها صورة من كل تعاقد على قرض ، وأنشأت ديواناً خاصاً باليهود يجمع هذه الفقود ، ويراقبها ، ويستمع إلى القضايا الخاصة بها ؛ فإذا ما عجز صاحب مصرف يهودي عن أداء الضرائب أو المطاب المفروضة عليه ، رجعت الحكومة إلى ما لديها من سجلات عن قروضه ، وصادرتها كلها أو بعضها ، وأندرت مدينيه بأن يؤدوا إليها هي لا إليه ما عليهم من الديون (٦٣) . ولما أن فرض هنري الثاني على سكان إنجلترا ضريبة خاصة في عام ١١٨٧ ، أرغم اليهود على أداء ربع أملاكهم ، والمسيحيون على عشرينها ، وبذلك أدى اليهود وحدهم ما يقرب من نصف الضريبة كلها (٦٤) . وكان اليهود في بعض الأحيان « هم الذين يمولون المملكة » (٦٥) . وأمر الملك يوحنا في عام ١٢١٠ أن يزج في السجون يهود إنجلترا على بكرة أبيهم — رجالا كانوا أو نساء أو أطفالا — ثم جمعت منهم ضريبة للملك بلغت ٦٦٠٠٠٠ مارك (٦٦) .

وعذب الذين ظنوا أنهم لم يبوحوا بكل ما كان لديهم من أموال مكنوزة بأن اقتلعت سن من أسنانهم كل يوم حتى يقرروا بحقيقة مدخراتهم (٦٧). وفي عام ١٢٣٠ اتهم هنري الثالث اليهود بقطع جزء من عملة الدولة (ويبدو أن بعضهم قد فعل ذلك حقاً) ، فصادر ثلث ما يمتلكه يهود إنجلترا من ثروة منقولة ، ولما تبين أن هذه الوسيلة مربحة ، أعيدت في عام ١٢٣١ ، وبعد عامين من ذلك التاريخ انتزع من اليهود ٢٠٠٠٠٠ مارك فضي ، ثم انتزع منهم في عام ١٢٤٤ ستون ألف مارك (*) - وهو مبلغ يوازي مجموع إيرادات التاج الإيطاني السنوية . ولما أن استدان هنري الثالث ٥٠٠٠ مارك من دوق كه رنول رهن له جميع يهود إنجلترا ضماناً لدينه (٦٨) . وتوالت على اليهود فيما بين عامي ١٢٥٢ و ١٢٥٥ سلسلة من القروض المالية دفعتهم إلى حال من اليأس لم يروا معها بدأ من أن يطلبوا أن يؤذن لهم بمغادرة إنجلترا جملة ، ولكن طلبهم هذا لم يلق قبولا (٦٩) . وحرّم إدورد الأول في عام ١٢٧٥ التعامل بالربا تحريماً باتاً ، ولكن الاقتراض لم ينقطع رغم هذا التحريم ، وإذا كان خطر ضياع المال قد ازداد بسببه ، فقد ارتفع سعر الفائدة ، ولذلك أمر إدورد بالقبض على جميع اليهود ومصادرة جميع أملاكهم ؛ وقبض كذلك على كثيرين من المرابين المسيحيين وشنق ثلاثة منهم . أما اليهود فإن مائتين وثمانين منهم قد شنقوا ، وطيف بجثثهم في شوارع لندن ثم مزقت ، وقتل عدد آخر منهم في المقاطعات الإنجليزية . وصودرت أملاك مئات منهم لصالح الدولة (٧٠) .

وأثرى أصحاب المصارف اليهود في الفترات القلقة التي تخللت أوقات المصادرة ، وظهرت علائم الثراء المفرط على بعضهم أكثر مما يجب أن تظهر ؛ فلم يقتصروا على تقديم المال اللازم لبناء القصور ، والكنائس الكبرى ، والأديرة ،

(*) كان المارك نصف رطل من الفضة ، أما قيمته الشرائية فأكبر الظن أنها كانت تعدل قيمته في هذه الأيام خمسين مرة (٨٤٠ دولار أمريكي) .

بل شادوا لأنفسهم فوق ذلك بوقتاً فخمة ، فكانت تلك البيوت في إنجلترا من أول ما بنى من البيوت بالحجارة . وكان بين اليهود أغنياء وفقراء على الرغم من قول العزر : « الناس كلهم أكفاء عند الله - النساء والعبيد ، والأغنياء والفقراء » (٧١) . وحاول رجال الدين أن يخففوا الفقر ، وأن يمنعوا الاستغلال الجشع للمال بوضع عدة نظم اقتصادية مختلفة ، فأخذوا يؤكدون ما على الجماعة من تبعات لجميع أفرادها ، وخففوا آلام الشدائد بالصدقات المنظمة ؛ نعم إنهم لم ينددوا بالغنى ، ولكنهم أفلحوا في رفع مكانة العلم حتى ساوت مكانة الثراء ؛ ووسموا الاحتكار والاثمار على التحكم في الأسعار بميسم الخطايا (٧٢) ، وحرموا على بائع الأشتات أن يكسب أكثر من سدس ثمن الجملة (٧٣) ؛ وكانوا يرانبون الموازين والمقاييس ، ويحددون أقصى الأثمان وأقل الأجور ؛ لكن كثيراً من هذه النظم قد عجزت عن تحقيق الغرض المقصود منها ، لأن رجال الدين لم يستطيعوا فصل حياة اليهود الاقتصادية عن حياة جيرانهم في البلاد الإسلامية أو المسيحية ، ووجد قانون العرض والطلب في السلع والخدمات له طريقاً ينفذ منها حول جميع التشريعات .

٣ - الأخلاق

وحاول الأغنياء أن يكفروا عن ثرائهم بالصدقات الكثيرة ، فكانوا يقرون بما على الله من واجبات اجتماعية ، وعلهم أيضاً قد خافوا ثورة الفقراء أو لعنهم ، فلم يعرف قط أن يهودياً مات من الجوع وهو يعيش في بيئة يهودية (٧٥) . ومن بداية القرن الثاني المسيحي كان مشرفون رسميون يفرضون في فترات محددة على كل فرد من أفراد العشيرة اليهودية مهما يكن فقيراً أن يكتب بشيء من ماله « لضندوق العشيرة » الذي يعنى بالشيوخ ، والفقراء ، والمرضى ، وبتعليم اليتامى وزواجهم . وكانت واجبات الضيافة تقدم بالجمان وبخاصة للعلماء الجائلين . وفي

بعض الجماعات كان المسافرون اليهود إذا قدموا على بلد آواهم موظفون من الجماعات اليهودية في بيوت الأفراد اليهود . وزاد عدد الجمعيات الخيرية اليهودية زيادة كبيرة كلما تقدمت العصور الوسطى ، فلم تكن هناك فقط كثير من المستشفيات ، وملاجئ للأيتام وبيوت للفقراء والطاعنين في السن ، بل كانت هناك أيضاً منظمات تؤدي أموال القداء للمسجونين ، وبائعات للعائس الفقيرات ، وأجور الأطباء للمرضى ، وتعنى بالأرامل المعدومات ، وتدفن الموتى من غير أجر (٧٧) . وكان المسيحيون يشكون من شره اليهود ويحاولون أن يثيروا حماسة المسيحيين للصدقة بأن يضربوا لهم أمثلة من كرم اليهود (٧٨) .

وكانت الفروق بين الطبقات عند اليهود تظهر في ثيابهم ، وطعامهم ، وحديثهم وفي مائة أخرى من أساليب حياتهم . فكان اليهودى البسيط يلبس قفطاناً طويل الكمين فوقه حزام ، وكان أسود اللون في العادة ، كأنه رمز للحزن على هيكله المهدم وعلى بلاده ، لكن أثرياء اليهود في أسبانيا كانوا يظهرون ثراءهم بلبس الثياب الحريرية ، وطالما جذرهم الفقراء دون جدوى من أثر هذا التظاهر في إثارة البغضاء والأحقاد . ولما أن حرم ملك قشتالة هذا التجميل في الملابس أطاع الرجال اليهود أمره ولكنهم ظلوا يلبسون أزواجهم أفخر الثياب ؛ ولما أن سألهم الملك في ذلك أكدوا له أن الشهامة الملكية لم تكن تقصد قط أن يطبق هذا القيد على النساء (٧٩) ، وظل اليهود طوال العصور الوسطى يجملون نساءهم بفخر الثياب ، ولكنهم حرموا عليهن أن يظهرن أمام الجماهير عاريات الرأس ، وأنذروهن بأن مخالفة هذا الأمر تصح سبباً للطلاق ، وأمير اليهودى ألا يصلى في حضرة امرأة يرى الناس شعرها (٨٠) .

وكانت نواحي التلمود المتصلة بالقوانين الصحية مما خفف من آثار الازدحام في أحياء المدن ، فعملية الختان ، والاستحمام كل أسبوع ، وتحريم الخمر وأكل اللحم الفاسد ، كلها وسائل وقت اليهود شرّاً للأمراض المنتشرة في البيئات المسيحية

المجاورة لهم أكثر من غيرهم من السكان (٨١) . مثال ذلك أن الجذام كان منتشرأ بين فقراء المسيحيين الذين يأكلون اللحم أو السمك المملح ، ولكنه كان نادر الحدوث بين اليهود ؛ ولعل هذه الأسباب نفسها هي التي جعلت إصابة اليهود بالكوليرا وما شابهها من الأوبئة أقل من إصابة المسيحيين (٨٢) . لكن اليهود والمسيحيين على السواء كانوا يعانون الأمرين من الملاريا في أحياء رومة القلرة الموبوءة بالبعوض من منافع كمانيا Campagna .

وكانت حياة اليهودى تنعكس عليها من الناحية الأخلاقية تراثه الشرقى والقيود التي يفرضها عليه الأوربيون ؛ ففي كل مناحى الحياة حقوق له مهضومة ، وأمواله معرضة للنهب وحياته للخطر والإذلال ، يتهم بجرائم ليست له يد فيها ، ولهذا كله لجأ كما يلجأ الضعيف الجسم في كل مكان إلى الدهاء يتقى به الأذى . نعم إن أحبار اليهود كانوا ينادون في كل حين أن « خداع غير اليهودى شر من خداع اليهودى نفسه (٨٣) » ؛ ولكن بعض اليهود كانوا يخالفون هذه النصيحة (٨٤) ؛ ولعل المسيحيين أيضاً كانوا يخادعون بكل ما يعرفونه من خداع . فرجال المصارف اليهود منهم والمسيحيون لم يكونوا يرحمون مدينهم بل كانوا يتقاضون منهم كل ما عليهم من ديون ، وإن كنا لا ننكر أنه كان في العصور الوسطى ، كما كان في القرن الثامن عشر ، دائنون لا يقلون أمانة وإخلاصاً عن ماير أنسلم من آل روتشيلد . وكان بعض اليهود والمسيحيين ينتحون النقود ، أو يقبلون البضائع المسروقة (٨٥) ، ولكن كثرة استخدام اليهود في المناصب المسالية الكبرى توحى بأن من يستخدمونهم من المسيحيين كانوا يثقون بأمانتهم واستقامتهم ؛ وقلما كان اليهود يرتكبون جرائم العنف - كالقتل ، والسطو ، والسلب - ، وكان السكر أقل انتشاراً بينهم في البلاد المسيحية منه في البلاد الإسلامية .

وكانت حياتهم الجنسية عفيفة إلى حد عجيب على الرغم من أخذهم بمبدأ تعدد

الزوجات ؛ وكانوا أقل ميلاً للواط من غيرهم من الشعوب الشرقية الأصل (*) . وكانت نساؤهم عذارى ذوات خفر وحياء ، وأزواجاً عاملات مجذبات ، وأمهات مخصبات ذوات ضمائر حية ، وكان من أثر التبكير بالزواج أن قلت الدعارة بينهم إلى أقل حد يستطيع الوصول إليه عند بني الإنسان (٨٦) . وكان العزاب نادري الوجود بين رجالهم ، وكان من القواعد التي وضعها الحاخام أشير بن يحيال أن من حق المحاكم أن ترغم الأعزب على الزواج إذا بلغ العشرين من العمر ، ولم يكن منهمكاً في دراسة الشريعة (٨٧) . وكان الآباء هم الذين ينظمون أمور الزواج ، وتقول إحدى الوثائق اليهودية الباقية من القرن الحادي عشر إنه كان يندرج وجود فتيات « يبلغن من قلة الذوق أو من الوقاحة ما يجرأن معه على أن يبدين هواهن أو خيارهن » في هذه الناحية (٨٨) . ولكن الزواج لا يكون قانونياً إلا برضاء الزوجين (٨٩) . وكان من حق الوالد أن يزوج ابنته لمن يشاء وهي صغيرة السن حتى وإن كانت في السادسة من عمرها ؛ ولكن زواج الأطفال على هذا النحو لم يكن يتم إلا إذا بلغ الزوجان سن الرشد ، وكان من حق الفتاة أن تلغى هذا الزواج إذا شاءت (٩٠) . وكانت الخطبة إجراء رسمياً تجعل الفتاة زوجة للرجل من الوجهة القانونية ، ولا يمكن التفريق بعدها بين الزوجين إلا بوثيقة طلاق قضائية . وكان عقد يوقع عند الزواج (كتوبة) يحدد فيه بائنة الزوجة ومهر الزوج . وكان هذا المهر مبلغاً من المال يُجَنَّب من مال الزوج ويؤدى للزوجة إذا طلقها أو مات عنها . وبغير هذا المهر الذي لم يكن يقل عن مائتي زوزا Zuzas (وهو قدر يكفي لشراء بيت تسكنه أسرة واحدة) لا يصبح الزواج بعدراء صحيحاً من الوجهة القانونية .

(*) لسنا نعتقد أن المؤلف يريد أن يتهم الشرقيين بأنهم يميلون إلى اللواط أكثر من غيرهم من الشعوب . فقد سبق أن وصف اللواط عند اليونان وصفاً لا نرى موجبا لإعادته ، ونظن أنه إنما يريد أن يقارن اليهود - وهم شرقيون في الأصل - بغيرهم من شعوب الشرق فيقول إن هذا الداء كان أقل انتشاراً عند بعض الشعوب الشرقية . (المترجم)

وكان تعدد الزوجات سنة جرى عليها أغنياء اليهود في البلاد الإسلامية ولكنها كانت نادرة بينهم في البلاد المسيحية^(٩١). وتشير الآداب الدينية التي وصلت إلينا من عهد ما بعد التلمود ألف إشارة وإشارة إلى « زوج الرجل » ، ولا تشير قط إلى « أزواجه » . وأصدر جرشم بن يهوذا جاخام مينز في عام ١٠٠٠ م أمراً بجرمان كل يهودى يتزوج أكثر من واحدة ، وما لبث تعدد الزوجات بعد هذا القرار أن انقرض أو كاد بين اليهود في جميع أنحاء أوروبا ما عدا أسبانيا . على أن حالات من هذا التعدد ظلت تحدث من حين إلى حين إذا ظلت الزوجة عقيماً بعد عشر سنين من زواجها وسمحت هي للرجل أن يتخذ له حظية أو زوجة ثانية^(٩٢) ، ذلك أن الأبوة كانت مسألة حيوية عند اليهود . وقد ألغى هذا القرار نفسه - قرار جرشم - ما كان للزوج قديماً من حق طلاق زوجته بغير رضاها ومن غير جريمة ارتكبتها ؛ وأكبر الظن أن الطلاق بين اليهود في العصور الوسطى كان أقل منه في أمريكا في هذه الأيام .

وكانت الأسرة أكبر أسباب نجاة الحياة اليهودية وإن لم تكن رابطة الزواج قوية محكمة من الوجهة القانونية . ذلك أن الخطر المحدق باليهود من خارجهم قد قوى وحدتهم الداخلية ، ويشهد أعداؤهم أنفسهم بما كانت تمتاز به الأسرة اليهودية ، وما تمتاز به الآن ، من « حرارة ، وكرامة ... وتفكير ، وتدبير ، وحب أبوى وأخوى »^(٩٤) . فقد كان الزوج الشاب يشترك مع زوجته في العمل ، وفي السراء والضراء ؛ وكان شديد الحب لها لأنه يراها جزءاً من نفسه الكبرى ؛ وإذا أصبح أباً وكبير أطفاله من حوله أثاروا فيه قواه المدخرة وبعثوا فيه أعمق الوفاء . وأكبر الظن أنه لم يكن قبل الزواج قد مس جسم امرأة غير زوجته دون الشعار ، ولم تكن تتاح له في تلك البيئة الصغيرة الوثيقة الصلات إلا أقل الفرص للخيانة الزوجية بعد الزواج . ويكاد منذ ولادة أطفاله يبدأ بادخار بائناات لبناته ومهور لأولاده ، وكان من البدائنه عنده أن من واجبه أن يساعد البنين والبنات بماله في

السنين الأولى من حياتهم وحياتهم الزوجية . وكان ذلك يبدو له أكثر حكمة من ترك الشاب يستعد لقيود الزواج المفرد بفترة من الاختلاط الجنسي الطليق . وكثيراً ما كان العريس يعيش مع عروسه في بيت أبيها - وقلما كان ذلك سبباً في ازدياد سعادة الأسرة . وكان سلطان الأب الأكبر في البيت ساطعاً مطلقاً لا يكاد يقل في ذلك عن سلطانه في رومه الجمهورية . فكان من حقه أن يحرم أبناءه دينياً ، وأن يضرب زوجته ضرباً غير مفرط ، فإذا ما أصابها بأذى جسيم فرضت عليه العشرة غرامة تتناسب مع موارده ؛ وكان في العادة يمارس سلطانه بصرامة لا تغطي قط على عاطفة الحب القوية .

وكان مركز المرأة منحطاً من الوجهة القانونية ، عالياً من الناحية الأخلاقية . واكن الرجل اليهودي يحمده الله ، كما يحمده أفلاطون ، لأنه لم يولد أنثى ، وكانت المرأة تجيب عن ذلك في تواضع جم : « وأنا أحمد الله الذي خلقني كما أراد » (٩٥) . وكان للنساء في المعبد موضع منعزل في الرواق أو خلف الرجال - وتلك تحية سمجة لمفاتنهن التي تلهي العابدين عن العبادة ، ولم يكن يحسن في العدد الواجب اكتماله لأداء الصلاة . وكانت الأغاني التي يمتدح بها جمال المرأة تعد عملاً غير لائق وإن كان التلمود قد أباحها (٩٦) . أما التغازل - إذا وجد - فلم يكن إلا عن طريق المراسلة ؛ ولقد نهى الأحبار عن التخاطب بين الرجال والنساء - حتى بين الزوجين - أمام الناس (٩٧) ، وقد أبيض الرقص ولكنه كان مقصوراً على رقص المرأة مع المرأة والرجل مع الرجل (٩٨) .

وكان القانون يجعل الزوج هو الوارث الوحيد لزوجته ، أما الأرملة فلم يكن من حقها أن ترث زوجها ، فإذا ماتت حصلت على قيمة بائنتها ، ومهر الزواج ؛ أما فيما عدا هذا فقد كانت تعتمد على أبنائها الذكور ، وورثة أبيهم الطبيعيين ؛ في أن يسروا لها سبل الحياة الطيبة . ولم تكن البنات يرثن آباءهن إلا إذا لم يكن له أبناء ذكور ؛ فإذا كان له اعتمدن على جبهم الأخوى ، وقلما كان يخيب فيهم

رجالهن (٩٩) . ولم تكن البنات يرسلن إلى المدارس ؛ فقد كان العلم مهما قل يعد بالنسبة إليهن أمراً شديداً الخطورة . على أنهن رغم هذا كن يسمح لهن بأن يدرسن في بيوتهن ؛ فنحن نسمع عن عدد من النساء يلقين محاضرات عامة في الشريعة - وإن كانت صاحبة المحاضرة تستتر أحياناً عن المستمعين (١٠٠) . ولكن المرأة اليهودية الجلديةة بالتكريم والإخلاص ، كانت تلقى بعد زواجها كل ما هي خليقة به منهما رغم ما كان يحيط بها من إجحاف مادي وقانوني ، وقد نقل يهوذا بن موسى بن تيبون Tibbon عن حكيم مسلم قوله : « لا يكرم النساء إلا الكريم ، ولا يحقرهن إلا الحقير » (١٠١) .

وكانت صلوات الأب بأبنائه أقرب إلى الكمال من الصلوات الزوجية . فقد كان اليهودي بما عرف عن الرجل الساذج العادي من كبرياء ، يفخر بأبنائه وبقدرته على إنجاب الأبناء . وكان يقسم أغلظ أيمانه بأن يضع يده على خصيتي من يتلقى منه اليمين ، ومن هنا اشتقت كلمة testimony الأوربية (*) ، ومعناها الشهادة أو البيئنة أو الشاهد نفسه . وكان كل رجل يؤمر بأن يكون له طفلان على الأقل ، وكان له في العادة أكثر من اثنين . وكان الطفل يلقي الإجلال الذي يليق بزائر قدم من السماء ، ومن ملك تجسد ؛ وكان الأب يلقي من التبجيل ما يكاد يجعله رسولا من عند الله ، فكان الولد يقف في حضرة أبيه حتى يأمره بالجلوس ، ويطيعه طاعة جزعة قلقة تتناسب مع كبرياء الشباب . وكان الولد أثناء الاحتفال بالختان يكرس إلى يهوه بمقتضى عهد أبراهام ، وكانت كل أسرة تشعر بأن تعد واحداً من أبنائها على الأقل ليتولى المناصب الدينية . وكان الولد ، إذا بلغ الثالثة عشرة من عمره ، يدخل ميدان الرجولة ، ويفرض عليه كل ما تفرضه الشريعة على الرجال ، ويحدث ذلك في حفل رهيب يثبت فيه هذا ويؤكد .

(*) من كلمة Testes ومعناها الخديتان . (المترجم)

وكان الدين يخلع رهبته وقداسته على كل مرحلة من مراحل نموه ، وينخفض .
بذلك من واجبات الآباء .

٤ - الدين

كذلك كان الدين رقابة روحية في كل ناحية من نواحي القانون الأخلاقي . لا ريب إنه كانت في الشريعة ثغرات ، وأن الحيل القانونية كانت تتلمس لكي تعاد إلى الشعب حرية التطبيق التي لا غنى عنها لكل شعب مغامر . ولكن يلوح أن الرجل اليهودي في العصور الوسطى كان يقبل الشريعة بوجه عام ويتخذها درعاً لا يقيه اللعنة الأبدية فحسب ، بل يقيه فوق ذلك وبصفة أظهر للعيان تفكك جماعته وانحلالها . نعم إنها كانت تضيق عليه في جميع مناحي الحياة ، ولكنه كان يعظمها لأنها موطن نشأته ومدرسة تربيته والوسيلة التي لا بد منها لحياته .

وكان كل بيت في بلاد اليهود كنيساً ، وكل مدرسة معبدًا ، وكل أب كوهناً . فصلوات الكنيس وطقوسه كان لها مشيلات موجزة في البيت . وكان الصوم والأعياد الدينية يحتفل بها فيه احتفالات تعليمية تربط الماضي بالحاضر والأحياء بالأموات وبمن لم يولدوا بعد . وكان من عادة الأب في مساء يوم الجمعة أي ليلة السبت من كل أسبوع أن يجمع حوله زوجته ، وأولاده ، وخدمه ، ويباركهم فرداً فرداً ، ويؤمهم في الصلاة ، وفي القراءة من الكتب الدينية ، والأغاني المقدسة . وكانت تعلق على باب كل حجرة كبيرة من حجرات البيت أنبوبة (مزوزا) محتوية على ملف من الرق كتبت عليه فقرتان من سفر تثنية الاشرع (الآيات ٤ - ٩ من الأصحاح السادس ، ١٣ - ٢١ من الأصحاح الحادى عشر) تذكر اليهودى أن إله « واحد يجب عليه أن يحبه من كل قلبه وروحه وبكل قوته » . وكان يجاء بالولد إلى الكنيس من سن الرابعة وما بعدها ، حيث ينطبع

الدين في نفسه في أكثر السنين. تأثيراً في تكوينه.

ولم يكن الكنيس معبداً دينياً فحسب ، بل كان فوق ذلك المركز الاجتماعي للعشيرة اليهودية ؛ والمعنى الحرفي للفظ سناجوج ، وإكليزيا ، وسينود ، وكلية هو مجتمع ؛ ولقد كان الكنيس قبل المسيحية مدرسة ولا يزال يسمى شوله Schule عند اليهود الإشكنازيين ، ثم أخذ على عاتقه في عهد التشتت عدداً كبيراً من الواجبات العجبية المختلفة ، فكان من عادة بعضها أن ينشر في كل سبت ما يصدره بيت الدين من قرارات خلال الأسبوع المنصرم ، وأن يجي الضرائب ، وأن يعلن عن الأمتعة المفقودة ، وأن ينظر في شكاوى بعض الأفراد من البعض الآخر ، وأن يذيع أخبار الأملاك قبل مواعده حتى يستطيع من له حقوق في هذه الأملاك أن يعترض عليه . وكان الكنيس يوزع الصدقات العامة ، وكان في بلاد آسية مسكناً لأبناء السبيل . وكان مبناه على الدوام أجمل المباني في الحي اليهودي ، وكان في بعض الأحيان وبخاصة في أسبانيا وإيطاليا آية من آيات العجزة ، مزداناً أعظم زينة وأجملها ؛ وكثيراً ما كان ولاية الأمور المسيحيون يحرمون على اليهود إقامة معابد تطاول أعلى كنيسة مسيحية في المدينة ، وأمر البابا هونوريوس الثالث في عام ١٢٢١ بهدم معبد بهذا الوصف في بوج Bourges (١٠٢) .

وكان في أشبيلية في القرن الرابع عشر ثلاثة وعشرون كنيساً ، وفي طليطلة وقرطبة ما لا يكاد يقل عن هذا العدد ، منها واحد شيد في قرطبة عام ١٣١٥ تحتفظ به الحكومة الأسبانية على أنه أثر قومي .

وكان بكل كنيس مدرسة (بيت الدرر Beth ha midrash) بالإضافة إلى المدارس الخاصة والمعلمين الخصوصيين ، وأكبر الظن أن نسبة من كانوا يعرفون القراءة والكتابة بين يهود العصور الوسطى كانت أكبر منها بين المسيحيين (١٠٤) وإن كانت أقل منها بين المسلمين . وكانت أجور المدرسين تؤديها الجماعات اليهودية عامة أو يؤديها الآباء ، ولكنهم كلهم كانوا خاضعين لرقابة

الجماعة المشتركة . وكان الأولاد يخرجون إلى المدارس مبكرين - قبل مطلع الفجر في الشتاء ؛ ثم يعودون إلى بيوتهم بعد بضع ساعات لتناول الفطور ، ثم يرجعون إلى المدرسة حيث يبقون حتى الساعة الحادية عشرة ، ثم يأتون إلى المنزل للغداء ، ويعودون إلى المدرسة ظهراً ، ثم يستريحون بين الساعة الثانية والثالثة ، ثم يذهبون مرة أخرى إلى المدرسة ويبقون فيها إلى المساء ، ثم يطلق سراحهم أخيراً ليعودوا إلى بيوتهم ليتعشوا ، ويصلاوا ، ويناموا ، وكذلك كانت حياة الغلام اليهودي حياة جدية شاقة (١٠٥) .

وأول ما كان يدرسه الغلام اليهودي هو اللغة العبرية وأسفار موسى الخمسة ؛ فإذا بلغ العاشرة من عمره بدأ يدرس المشنا ، وفي الثالثة عشرة يأخذ في دراسة الأجزاء الرئيسية من التلمود ، ومن شاء منهم أن يكون من العلماء واصل دراسة المشنا والجمارا من الثالثة عشرة إلى العشرين من عمره أو ما بعدها . وكان الطالب يتعلم عن طريق دراسته لموضوعات التلمود المختلفة مقداراً قليلاً من العلوم المختلفة تبلغ عشرة أو تزيد ، ولكنه لا يكاد يدرس شيئاً من تاريخ اليهود (١٠٦) . وكان أكثر ما يتعلمه عن طريق التكرار ، وكانت التلاوة الجماعية قوية عالية إلى حد جعل بعض البيئات تمنع وجود المدارس فيها (١٠٧) . أما التعليم العالي فكان مكانه اليشبية أو المجمع العلمي ، وكان خريجه هذا المجمع يسمى تلميذ حاخام أي عالماً بالشريعة ؛ وكان يعنى عادة من الضرائب المفروضة على سائر أفراد العشيرة ، وكان ينتظر من غير العلماء أن يهبوا واقفين إذا أقبل أو أدبر وإن لم يكن حتماً من الأخبار الرسميين (١٠٨) .

أما الحبر الرسمي فكان معلماً وقاضياً ، وكاهناً . وكان يطلب إليه أن يتزوج ، ولم يكن يتقاضى نظير القيام بواجباته الدينية إلا القليل من الأجر إذا تقاضى شيئاً منه على الإطلاق ؛ وكان العادة يكسب عيشه بعمل من الأعمال التي لا تمت بصلة إلى الدين ؛ وقلها كان يعظ ، لأن الوعظ كان متروكاً لوعاظ متقلبين (مجديم)

يدربون على فنون البلاغة المرهبة ذات الأصوات المنغمة الطنانة الرنانة .
وكان في مقدور كل فرد من المصلين أن يؤم الجماعة ، ويقرأ فقرات من
الكتاب المقدس ، ويعظ ؛ ولكن هنا الشرف كان يختص به في العادة
أحد اليهود البارزين أو الذين لهم يد طولى في الصدقات والأعمال الخيرية .
وكانت الصلاة عند اليهود المتمسكين بالدين عملاً شديداً التعقيد ، لا تؤدى
على الوجه الصحيح إلا إذا غطى المصلي رأسه دليلاً على الخشوع ، وربط على
ذراعيه وجبهته علماً صغيرة ، تحتوى فقرات من سفر الخروج (الآيات
١ - ١٦ من الأصحاح الثالث عشر) وتثنية الاشرع (الآيات ٤ - ٩ من
الأصحاح السادس ، و ١٣ - ٢١ من الأصحاح الحادى عشر) ، وثبت
في أطراف ثيابه أهداباً نقشت عليها أهم وصايا الرب . وكان رجال الدين
يفسرون هذه الإجراءات الشكلية بأنها أمور لا بد منها لتذكر اليهود بوحدانية
الله ، ووجوده ، وشرائعه . أما السذج من اليهود فقد أصبحوا يحسبونها
تمام سحرية ذات قوى معجزة خارقة للطبيعة . وكانت الصلاة تختم بقراءة
من ملف الشريعة الموضوع في تابوت صغير فوق المذبح .

وكان اليهود في المنفى لا يوافقون على إدخال الموسيقى في الشعائر الدينية ،
ويرون أنها قلما تتفق مع حزنهم على وطنهم الضائع ، ولكن الواقع أن بين
الموسيقى والدين من الصلات القوية مثل ما بين الشعر والحب . ذلك أن التعبير
المتحضر عن أقوى العواطف وأكثرها عمقاً يتطلب أشد الفنون إثارة
للانفعالات النفسية ؛ ولقد عادت الموسيقى إلى الكنيس عن طريق
الشعر ؛ ذلك أن البيتانيم Paitanim أو « الشعراء الجدد » العبرانيين
شرعوا يكتبون أشعاراً دينية مثقلة بالزخرف الصناعي كالأبيات المتجانسة
أولى حروفها أو التي إذا جمعت الحروف الأولى منها كونت اسماً خاصاً
أو جملة بعينها ، ولكنها يرفع من قدرها رنين اللغة العبرية وفخامة
نغماتها وامتلاؤها بالحماسة الدينية التي أضحت عند اليهودى وطنية وديناً
معاً . ولا تزال ترانيم العزرن بن قدير (من القرن الثامن) الفجة الفوية

تجد لنا مكاناً في طقوس بعض المعابد اليهودية . ولقد ظهرت أشعار مثلها عند
يهود أسبانيا وإيطاليا ، وفرنسا ، وألمانيا ، منها واحدة يترنم بها كثيرون
من اليهود يوم عيد الكفارة :

إذا أقبلت ملكوتك تشمقت التلال عن أناشيد .

وضحكت الجزائر مهللة لأنها تنتسب إلى الله .

وتغنى كل من فيها من المصلين بأعلى أصواتهم يثنون عليك .

حتى إذا سمعتها أبعد الشعوب نادى بك ملكاً متوجاً عليها (١٠٩) .

ولما أن أدخلت هذه القصائد المقدسة (الپيوطيم) في الصلوات التي تقام
في المعابد ، كان ينشدها مرتل القديس ، وبذلك عادت الموسيقى إلى الشعائر
الدينية . يضاف إلى هذا أن تلاوة الكتاب المقدس والأدعية كان ينشدها في
كثير من المعابد رئيس فرقة المرتلين أو ينشدها المرتلون إنشاداً ترتجل معظم
نغماته ارتجالاً ، ولكنها تتبع في بعض الأحيان نماذج النغمات البسيطة الموضوعية
للترانيم المسيحية (١١٠) . من ذلك أن النغمات المعقدة للأغنية العبرانية الذائعة
الصيت المعروفة باسم كل نيدري Kol Nidre (جميع الأيمان) (١١١) ، قد
أخذت من مدرسة دير سنت جون St. Gail الغنائية بسويسرا في وقت
ما قبل بداية القرن الحادى عشر .

على أن الكنييس اليهودى لم يحل في قلب اليهودى محل الهيكل بكل معانى
الحلول ، بل ظل أمله في أن يقدم القربان لهوه في يوم من الأيام أمام قدس
الأقداس على تل صهيون ، يلهب خياله ، ويتركه عرضة لخداع « المسيح
الكذاب » في مختلف الأوقات . من ذلك ما حدث في عام ٢٠ حين أعلن شيريم
Sereme وهو رجل سورى ، أنه هو المنقذ المنتظر ، وسيّر حملة لانتزاع فلسطين من
المسلمين . وغادر اليهود مواطنهم في بابل وأسبانيا ليشاركوا في هذه المغامرة ،
ولكن القائم بها أسر ، وعرضه الخليفة يزيد الثانى على الجماهير على أنه مهرج
دجال ، ثم أمر به فقتل . وبعد بضع سنين من ذلك الوقت تزعم عوبديا بن

عيسى بن إسحق الأصفهاني ثورة أخرى مثلها امتشق فيها عشرة آلاف يهودى الحسام ، واستبدلوا في الحرب بقيادته ، ولكنهم هزموا ، وقتل ابن عيسى في المعركة وعوقب جميع يهود إصفهان بلامتميز بينهم لانضمامهم إليه . ولما أثارت الحملة الصليبية الأولى ثائرة أوروبا حسبت الجماعات اليهودية أن انتصار المسيحيين سيعيد فلسطين إلى اليهود (١١٢) ، ولكنهم أفاقوا من أحلامهم على سلسلة من المذابح المدبرة . وفي عام ١١٦٠ أثار داويد الروى يهود العراق إذ نادى فيهم أنه هو المسيح المنتظر وأنه سيعود بهم إلى أورشليم ويرد إليهم حريتهم ؛ لكن حماه خشى أن يحقق الهلاك باليهود بسبب هذه الأفكار فما كان منه إلا أن ذبحه وهونأتم . ثم ظهر مسيح آخر في جنوبي جزيرة العرب عام ١٢٢٥ وأثار اليهود إثارة حمقاء . وكتب ابن ميمون «رسالة إلى الجنوب» ذائعة الصيت فند فيها مزاعم هذا الداعى ، وذكر يهود العرب بما أعقب هذه المحاولات الطائشة في ماضى الأيام من هلاك ودمار (١١٣) ، وإكته رغم هذا ارتضى الأمل فى المسيح المنتظر ، على أنه دعامة لا بد منها للروح اليهودية فى تشتمهم ، وجعل هذا الأمل إحدى العقائد الثلاث عشرة الأساسية فى الديانة اليهودية (١١٤) .

الفصل الرابع

كراهية اليهود

ترى ما هو منشأ العداة القائم بين غير اليهود واليهود ؟
لقد كانت الأسباب الرئيسية الباعثة على هذا العداة أسباباً اقتصادية ،
ولكن الخلافات الدينية كانت على الدوام سبباً في زيادة المنافسات الاقتصادية
وستاراً لها ؛ فالمسلمون المؤمنون برسالة محمد يغضبهم من اليهود عدم إيمانهم
بهذه الرسالة ، والمسيحيون الذين يؤمنون بالوهية المسيح يؤلمهم أن يجدوا
شعبه نفسه لا يؤمن بهذه الألوهية . ولم يكن كثيرون من المسيحيين الصالحين
يرون أن مما يخالف تعاليم دينهم أو يخالف التعاليم الإنسانية بوجه عام أن
يلقوا على شعب بأسره ، خلال القرون الطوال ، تبعة أعمال فئة قليلة العدد
من يهود أورشليم في آخر أيام المسيح . ويحدثنا إنجيل لوقا أن جماعات من
اليهود رحبت بدخول المسيح أورشليم (الآية ٣٧ من الأصحاح ٢٩) وكيف
حمل صليبه بيلاطس : « تبعه جمهور كبير من الشعب والنساء اللائي كن يلطمن
وينحن عليه » (الآية ٢٧ من الأصحاح ٢٣) ، وكيف أن كل الجموع
الذين « كانوا مجتمعين لهذا المنظر لما أبصروا ما كان رجعوا وهم يقرعون
صدورهم » (الآية ٤٨ من الأصحاح ٢٣) ، ولكن هذه الشواهد القاطعة
بعطف اليهود على عيسى كانت تنمحي ذكراها حين تتلى على المسيحيين
قصة الآلام المريرة كل أسبوع مقدس من فوق ألف منبر ومنبر ، فكانت
نيران الحقد تضطرم في قلوب المسيحيين ، وكان بنو إسرائيل في تلك الأيام
يحبسون أنفسهم في أحيائهم وبيوتهم خشية أن تثور عواطف السذج من الناس
فتؤدي إلى المذابح .

ونشأت حول هذا السبب الرئيسي من أسباب سوء التفاهم عشرات المئات

من أسباب الريبة والعداء : وتحمل رجال المصارف اليهود أكبر آثار العداء الناشئ من أسعار فائدة القروض ، وهي أسعار ترتفع كلما قلت ضماناتها . ولما أن نمت الشئون الاقتصادية المسيحية ، وغزا التجار ورجال المصارف من غير اليهود ميادين كان اليهود هم المسيطرين عليها من قبل ، أثارت المنافسة الاقتصادية الأحقاد في الصدور ، وأخذ بعض المرابين المسيحيين يبذرون بذور الحقد على السامية (١١٥) . وكان اليهود الذين يشغلون مناصب رسمية وبخاصة في المصالح المالية للحكومات المسيحية هدفاً طبيعياً لمن يكرهون الضرائب واليهود كليهما : وتأصلت هذه الأحقاد الاقتصادية والدينية في الصدور فأصبح كل ما هو يهودى بغضاً لبعض المسيحيين ، وكل ما هو مسيحي بغضاً لبعض اليهود ، فأخذ المسيحيون يعيبون على اليهود عزلتهم ، ولم يغفروا لهم هذه العزلة التي كانت رد فعل لتمييز غيرهم عليهم . وما كان يوجه إليهم من اعتداء في بعض الأحيان ، وبدت ملامح اليهود ، ولغتهم ، وآدابهم ، وأطعمتهم ، وشعائرهم ، بدت هذه كلها في أعين المسيحيين غريبة كريهة . ثم إن اليهود كانوا يطعمون حين يصوم المسيحيون ، ويصوم أولئك حين يفطر هؤلاء ، وظل يوم راحتهم وصلواتهم يوم السبت كما كان في قديم الأيام ، على حين أن يوم الراحة والصلوات عند المسيحيين قد تبدل فأصبح يوم الأحد ؛ وكان اليهود يحتفلون بنجاتهم السعيدة من مصر في عيد فصح قريب قرباً يراه المسيحيون غير لائق من يوم الجمعة الذي يحزنون فيه لموت المسيح . ولم تكن الشريعة اليهودية تبيح لليهود أن يأكلوا طعاماً مسته يد غير يهودية ، أو يشربوا خمرأ عصرته ، أو يستعملوا آنية لمستها (١١٦) ، أو أن يتزوجوا إلا من يهوديات (١١٧) . وكان المسيحي يفسر هذه القواعد القديمة - التي وضعت قبل نشأة المسيحية بزمن طويل - بأن اليهود يرون أن كل شيء مسيحي نجس ، ويرد على هذا بأن الإسرائيليين أنفسهم لم يكن في أغلب الأحيان يمتازون بنظافة جسمه أو أناقة ثيابه . ونشأت من عزلة هؤلاء وأولئك بعضهم عن بعض أقاصيص

سخيفة مخزنة انتشرت بين كلا الطرفين . وكان الرومان قبل ذلك الوقت يتهمون المسيحيين بأنهم يذبحون أطفال الوثنيين ليقدموا دماءهم في السر قرباناً لإله المسيحيين ، ثم أخذ المسيحيون في القرن اثنى عشر يتهمون اليهود باختطاف أطفال المسيحيين ليقدموهم قرباناً إلى يهوه ، أو ليتخذوا دماءهم دواء ، أو يستعملوه في صنع الخبز الفطير لعيد الفصح . واتهم اليهود بأنهم يسمدون الآبار التي يشرب منها المسيحيون ويسرقون الرقاق المقدس ليثقبوه ويخرجوا منه دم المسيح (١١٨) . ولما أن تباهى عدد قليل من تجار اليهود بثراتهم وأظهروا هذا الثراء بارتداء الملابس الغالية الثمن اتهم الشعب اليهودي على بكرة أبيه بأنه يستنزف أموال المسيحيين جملة ويضعها في أيدي اليهود . واتهمت اليهوديات بأنهن ساحرات ، وقيل إن كثيرين من اليهود من حزب الشيطان (١١٩) . ورد اليهود على هذه الأقاويص بأخرى مثلها عن المسيحيين ، وبقصص مهينة عن مولد المسيح وشبابه . وكان التلمود ينصح بأن تشمل الصدقات اليهودية غير اليهود (١٢٠) ، وكان بحيا Bahya يثني على الرهبنة المسيحية ، وكتب ابن ميمون يقول إن تعاليم المسيح والنبي محمد تنزع بالإنسانية إلى الكمال (١٢١) ، ولكن اليهودي العادي لم يكن يستطيع فهم هذه الحجاملات الفلسفية ، وبادل أعداءه حقداً بحقد .

وكانت هناك فترات صفاء بين أوقات الجنون السالفة الذكر ، فكثيراً ما كان اليهود يختلطون بالمسيحيين اختلاط الأصدقاء متجاهلين قوانين الدولة والكنيسة التي تحرم هذا الاختلاط ، وكانوا أحياناً يتزاوجون وبخاصة في أسبانيا وجنوبي أوروبا . وكان العلماء المسيحيون واليهود يتعاونون فيما بينهم ، ميكائيل اسكت Michael Scot مع أناتولي Anatoli ، ودانتي مع غمونييل (١٢٢) ؛ وكان المسيحيون يقدمون الهبات للمعابد اليهودية ، وفي مدينة وورمز Worms كانت هناك حديقة يهودية كبرى ينفق عليها من هبة وهبتها امرأة مسيحية (١٢٣) . وببدل يوم السوق في ليون من السبت إلى الأحد تيسيراً لليهود ، ووجدت الحكومات غير

الدينية أن اليهود عنصر نافع في الأعمال التجارية والمالية فأولتهم حمايتها في بعض الأوقات ؛ وإذا كانت دولة من الدول قد قيدت حركات اليهود أو أخرجتهم من بلادها فقد كان سبب ذلك في بعض الأحيان أنها لم يعد في مقدورها أن تحميهم من التعصب والعدوان (١٢٤) .

وكان موقف الكنيسة من هذه الأحداث يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ؛ ففي إيطاليا كانت تحمي اليهود بوصفهم « حراس الشريعة » الواردة في العهد القديم وبوصفهم شهداء أحياء على صحة الكتاب المقدس من الوجهة التاريخية وعلى « غضب الله » ؛ لكن مجالس الكنيسة كانت من حين إلى حين تعمل على زيادة متاعب الحياة اليهودية ، وكثيرا ما كان يصدر عنها ذلك بحسن نية ، وقلما كانت تعتمد في عملها هذا على ما لها من سلطان عام ؛ من ذلك أن قانون ثيودوسيوس Theodosian Code (٤٣٩) ، ومجلس كليرمنت Clermont (٥٣٥) ، ومجلس طليطلة (٥٨٩) كلها حرمت تعيين اليهود في المناصب التي من حق شاغلها أن يوقع عقوبة على المسيحيين ؛ وأمر مجلس أورليان Orleans (٥٣٨) جميع اليهود ألا يخرجوا من بيوتهم طوال الأسبوع المقدس ، ولعل ذلك الأمر كان يقصد به حمايتهم ، وحرّم استخدامهم في المناصب العامة . وحرّم مجلس لاتران Lateran الثالث (١١٧٩) على القابلات أو المرضعات المسيحيات أن يخدمن اليهود ، وندد مجلس بزير Beziers (١٢٤٦) باستخدام المسيحيين أطباء من اليهود ؛ وردّ مجلس أفنيون Avignon (١٢٠٩) على قوانين الطهارة اليهودية بتحذير « اليهود والعاهرات » من لمس الخبز أو الفاكهة المعروضة للبيع ؛ وأعاد القوانين الكنسية الصادرة بتحريم استئجار اليهود الخدم المسيحيين ، وحذر المؤمنين من تبادل الخدمات مع اليهود ، وأمر بتجنّبهم لنجاستهم (١٢٥) . وأعلنت بعض المجالس إلغاء كل زواج بين المسيحيين واليهود ؛ وأحرق شماس في عام ١٢٢٢ على القائمة الخشبية لأنه اعتنق الدين

اليهودى وتزوج يهودية^(١٢٦) . وحُرمت أرملة يهودية فى عام ١٢٣٤ من بائنتها بحجة أن زوجها اعتنق الدين المسيحى قبل وفاته وأن هذا يلغى زواجهما^(١٢٧) . وأصدر مجلس لاتران الرابع فى عام ١٢١٥ قراراً يحتم « على اليهود والمسلمين - ذكوراً كانوا أو إناثاً - فى كل ولاية مسيحية وفى جميع الأوقات أن يميزوا أنفسهم عن غيرهم فى أعين الجمهور بلبس أثواب خاصة لأن المسيحيين يخطئون أحياناً فيتصلون بنساء اليهود والمسلمين ، ويتصل اليهود والمسلمون بالنساء المسيحيات » . ولهذا يجب على اليهود والمسلمين متى جاوزوا الثانية عشرة من العمر أن يميزوا ملابسهم بلون خاص - ويكون ذلك بالنسبة للرجال فى غطاء الرأس أو الجبة ، وبالنسبة للنساء فى أقنعتهم . وكان من أسباب صدور هذه الأوامر أنها ردت على قوانين قديمة مماثلة لها أصدرها المسلمون ضد اليهود أو المسيحيين . وكان من نوع الشارة المميزة تعيينه محلياً حكومات الولايات أو المجالس الإقليمية للكنيسة المسيحية . وكانت فى العادة تتخذ صورة عجلة أو دائرة من النسيج الأصفر ، طول قطرها نحو ثلاث بوصات تخاط فى مكان ظاهر فوق الملابس . ونفذ هذا القرار فى إنجلترا عام ١٢٧٩ ؛ أما فى أسبانيا وإيطاليا وألمانيا فلم ينفذ إلا فى أوقات متباعدة قبل القرن الخامس عشر حين أخذ نيقولا القوزاوى Nickolas of Cusa وسان جيوفيتى دا كپسترانو San Giovanni de Capistrano يدعوان إلى التشدد فى تنفيذه بأكمله . وكان من أثر تلك الدعوة أن هدد يهود قشتالة فى عام ١٢١٩ بمغادرة البلاد بجملة إذا نفذ هذا القانون ؛ ووافق ولاية الأمور الدينيون على إلغائه ، وكثيراً ما كان الأطباء والعلماء ، ورجال المال ، والرحالة اليهود يعفون منه ، ثم أخذ العمل به يضعف قبل القرن السادس عشر وامتنع نهائياً حين قامت الثورة الفرنسية .

ويمكن القول بوجه عام إن البابوات كانوا أكثر رجال الدين تسامحاً فى العالم المسيحى . مثال ذلك أن جريجورى الأول ، نهى عن إرغام اليهود على

اعتناق الدين المسيحي رغم تحمسه الشديد لنشر هذا الدين ، وحافظ على ما لهم من حق المواطنة الرومانية في البلاد الخاضعة لحكمه (١٢٨) ؛ ولما أن استولى الأساقفة في طرشونة Terracina وبالرم على معابد اليهود لكي ينتفع بها المسيحيون أرغمهم جريجورى على أن يردوها إليهم كاملة (١٢٩) ، وكتب إلى أسقف نابلى يقول : « لا تسمح بأن يضيق على اليهود في أداء صلواتهم ، ودع لهم الحرية الكاملة في مراعاة أعيادهم وأيامهم المقدسة والاحتفال بها ، كما كانوا هم وآباؤهم يفعلون من زمن بعيد » (١٣٠) . وحث جريجورى السابع الحكام المسيحيين على إطاعة قرارات مجلس الكنيسة التي تحرم استخدام اليهود في المناصب ؛ ولما قدم إنجنوس الثالث إلى باريس عام ١١٤٥ ، وسار في موكب حافل إلى الكنيسة الكبرى التي كانت وقتئذ في الحى اليهودى ، بعث اليهود إليه بوفد ليهدى إليه التوراة أو ملف الشريعة ، فباركهم وعادوا إلى بيوتهم مغتبطين ، وطعم البابا حمل عيد الفصح مع الملك (١٣١) . وكان البابا إسكندر الثالث على وئام مع اليهود واستخدم واحداً منهم في إدارة شؤونه المالية (١٣٢) ؛ وتزعم إنوسنت Innocent الثالث مجلس لاتران الرابع فيما طلبه من أن يكون لليهود شارة خاصة ، ووضع هو المبدأ القائل بأن اليهود على بكرة أبيهم قد فرضت عليهم العبودية الأبدية لأنهم صلبوا عيسى (١٣٣) ، ثم كرر في ساعة كان فيها أرق مزاجاً الأوامر البابوية التي تحرم إرغام اليهود على ترك دينهم وقال : « لا يحق لمسيحي أن يؤذى اليهود في أجسامهم . . . أو يسلبهم أملاكهم . . . أو يتسبب في إقلاقهم أثناء الاحتفال بأعيادهم . . . أو يبتز منهم المال بتهديدهم بإحراق موتاهم (١٣٤) . وأعفى جريجورى التاسع منشى محكمة التفتيش (*) اليهود من إجراءاتها أو اختصاصها إلا إذا حاولوا إتهيد المسيحيين ، أو ارتدوا إلى الدين اليهودى بعد أن تنصروا (١٣٥) ،

(*) أو ديوان التحقيق Inquisition كما يسميها بعض المترجمين . (المترجم)

ونفذ إنوسنت الرابع (١٢٤٧) القصة القائلة بأن من شعائر اليهود ذبح أطفال المسيحيين وقال :

لقد ابتدع بعض القساوسة ، والأمراء ، والنبلاء وكبار الأشراف .. أساليب تتنافى مع الدين ضد اليهود خداعاً منهم وتضليلاً ، فحرموهم بلا حق من أملاكهم قوة واقتداراً ، واستولوا عليها لأنفسهم ، واتهموهم زوراً وبهتاناً بأنهم يقتسمون فيما بينهم في يوم عيد الفصح اليهودي ، قلب غلام مذبوح . . . والحق أنهم في حقدهم يعزون إلى اليهود كل حادث قتل أيا كان المكان الذي يقع فيه . وبسبب هذه التهم المختلفة وأمثالها تمتلئ قلوبهم غلا على اليهود ، فيهبون أموالهم . . . ويضطهدونهم بتجويعهم ، وسجنهم ، وتعذيبهم ، وإيدائهم بغير تلك الوسائل ، ويقضون عليهم أحياناً بالإعدام ، وبذلك أصبحت حال اليهود أسوأ مما كان عليه آباؤهم تحت حكم الفراعنة ، وإن كانوا يعيشون الآن تحت حكم أمراء مسيحيين . وهم لهذا يضطرون إلى مغادرة البلاد التي عاش فيها آباؤهم من أقدم العهود التي يذكرها الإنسان . وإذا كان يسرنا ألا يلحقهم أذى ، فإننا نأمركم أن تعاملوهم معاملة ودية رقيقة ؛ فإذا وصل إلى علمكم نبأ اعتداء ظالم وقع عليهم ، فردوا عنهم ما لحقهم من أذى ، ولا تسمحوا بأن يصيبهم مثل هذا الظلم في المستقبل (١٣٧) .

غير أن هذه الدعوة النبيلة لم تلق إلا أذناً صماء ، واضطر جريجورى الاشرى في عام ١٢٧٢ أن يكرر ما جاء فيها من تنديد بقصة قتل أطفال المسيحيين استجابة لبعض الشعائر الدينية اليهودية ؛ وأراد أن يزيد أقواله قوة وتأثيراً فقرر ألا تقبل شهادة مسيحي على يهودي إلا إذا عزها يهودي . وإن ما أصدره البابوت بعد هذا العهد حتى عام ١٧٦٣ من أوامر مماثلة لهذا الأمر ليشهد بما كانت تمتلئ به قلوب البابوات من شفقة وإنسانية كما تشهد بأن هذا الشر لم تجتث جذوره . ومما يدل على أن البابوات كانوا مخلصين في دعوتهم ما كان يستمتع به اليهود

في الدويلات البابوية من طمانينة إذا قيست حالهم بحال بني دينهم في غير هذه الدويلات ، ونجاتهم النسبية من الاضطهاد . ذلك أنهم لم يطردهوا قط من رومة أو من أفنيون البابوية مثل ما طردوا في أوقات مختلفة من كثير من البلاد ؛ وفي ذلك يقول مؤرخ يهودى عالم : « لولا الكنيسة الكاثوليكية لما بقي لليهود وجود في أوروبا بعد العصور الوسطى » (١٣٩) .

وكان اضطهاد اليهود بقوة في أوروبا أثناء العصور الوسطى متقطعاً ؛ فقد جرى الأباطرة البيزنطيون مائتي عام على خطة العسف التي جرى عليها جستنيان ضد اليهود ، وطردهم هرقل من أورشليم عقاباً لهم على ما قدموا للفرس من معونة ، وبذل كل ما في وسعه لإبادتهم ؛ وحاول ليو الإسورى Leo the Isaurian أن يفند الإشاعة القائلة بأنه يهودى بقرار أصدره عام ٧٢٣ يخير فيه اليهود البيزنطيين بين اعتناق الدين المسيحى أو النفى ؛ فن اليهود من خضع لهذا القرار ومنهم من أخرجوا أنفسهم في معابدهم مفضلين هذا على الخضوع له . وواصل باسيل الأول Basil I (٨٦٧-٨٨٦) الحملة القاضية بإرغام اليهود على التعميد ؛ وطالب قسطنطين السابع (٩١٢-٩٥٩) اليهود بأن يقسموا أمام المحاكم المسيحية يميناً مذلة ظلت باقية في أوروبا حتى القرن التاسع عشر (١٤١) .

ولما دعا البابا إربان Urban الثانى إلى الحرب الصليبية الأولى في عام ١٠٩٥ ظن بعض المسيحيين أنه يحسن بهم أن يقتلوا يهود أوروبا قبل أن يخرجوا لقتال الأتراك في أورشليم ؛ فلما قبل جودفرى البويونى Godfrey of Bouillon قيادة الحملة أعلن أنه سيثار لدماء المسيح من اليهود ولن يترك واحداً منهم حياً ؛ وجهر رفاقه بعزمهم على أن يقتلوا كل من لا يعتنق المسيحية من اليهود . وقام أحد الرهبان يثير حماسة المسيحيين أكثر من هذا فأعلن أن نقشاً على الضريح المقدس في أورشليم يجعل تنصير جميع اليهود فريضة أخلاقية على جميع المسيحيين (١١٢) . وكانت خطة الصليبيين أن يزحفوا جنوباً بمحاذاة نهر الرين حيث توجد أغنى

مواطن اليهود في أوروبا الشمالية ، وكان يهود ألمانيا قد اضطلعوا بدور رئيسي في إنماء تجارة نهر الرين وانتهجوا خطة جديدة من الصلاح وضبط النفس أكسبتهم احترام المسيحيين عامتهم ورجال دينهم على السواء . وكان الأسقف رودجر الأسپيري Rüdiger of Speyer ذا صلة وثيقة بيهود أبرشيته ، وقطع لهم عهداً يضمن لهم استقلالهم وسلامتهم ؛ وأصدر الإمبراطور هنري الرابع في عام ١٠٩٥ عهداً مماثلاً لهذا العهد لجميع اليهود المقيمين في مملكته (١٤٣) ؛ لذلك وقعت أبناء الحرب الصليبية ، والطريق الذي قررت اتباعه ، وتهديدات زعمائها ، وقع الصاعقة على تلك الجماعات اليهودية الآمنة المسالمة ، فتملكهم الرعب حتى شل تفكيرهم ، ودعا أحبارهم إلى الصوم والصلاة عدة أيام .

ولما وصل الصليبيون إلى أسبير جروا أحد عشر يهودياً إلى إحدى الكنائس وأمرهم أن يقبلوا التعميد ، فلما أبوا قتلوهم عن آخرهم (٣ مايو سنة ١٠٩٦) ؛ ولجأ غيرهم من يهود المدينة إلى الأسقف جوهنسن Johansen . فلم يكتب هذا الأسقف بحمايتهم . بل أمر بقتل عدد من الصليبيين الذين اشتركوا في مقتلة الكنيسة . ولما اقترب بعض الصليبيين من تريير Trier استغاث من فيها من اليهود بالأسقف إجلبرت Egilbert . فعرض عليهم أن يحميهم على شريطة أن يعمدوا ، ورضى معظم اليهود بهذا الشرط ، ولكن بعض النساء قتلن أطفالهن وألقين بأنفسهن في نهر الموزل Moselle (أول يونية سنة ١٠٩٦) . وفي مينز نجياً روثارد Ruthord كبير الأساقفة ١٣٠٠ يهودي في سرايبيه ؛ ولكن الصليبيين اقتحموها عليهم وقتلوا منهم ١٠١٤ ، واستطاع الأسقف أن ينقذ عدداً قليلاً منهم بإخفائهم في الكنيسة الكبرى (٢٧ مايو سنة ١٠٩٦) ؛ وقبل التعميد أربعة من يهود مينز ، ولكنهم انتحروا بعده بقليل . ولما اقترب الصليبيون من كولوني Cologne . نجأ المسيحيون اليهود في منازلهم ، وأحرق الغوغاء الحي اليهودي ، وقتلوا من وقع في أيديهم من اليهود القلائل ، فما كان من الأسقف هرمان

Hermann إلا أن نقل اليهود سرّاً من مخابهم عند المسيحيين إلى منازل المسيحيين في الريف وعرض بذلك حياته هو لأشد الأخطار . وكشف الحجاج الصليبيون هذه الحيلة ، وصادوا فريستهم في القرى وقتلوا كل من عثروا عليه من اليهود (يونية سنة ١٠٩٦) وكان عدد من قتلوا في إحدى القرى مائتي يهودي ؛ وحاصر الغوغاء اليهود في أربع قرى أخرى ، فقتل اليهود بعضهم بعضاً ، مفضلين هنا على التعميد ؛ وذبحت الأمهات من ولدن من الأطفال في أثناء هذه الاعتداءات وقت مولدهم . وفي وورمز أخذ الأسقف الأرانشر Alebranches من استطاع أن يأخذهم من اليهود إلى قصره وأنقذ حياتهم ، أما من لم يستطع أخذهم فقد هاجمهم الصليبيون هجوماً خالياً من كل رحمة ، فقتلوا الكثيرين منهم ، ثم نهبوا بيوت اليهود وأحرقوها ، وفيها انتحروا كثيرون من اليهود مفضلين الموت على ترك دينهم . ثم حاصرت جماعة من الغوغاء مسكن الأسقف بعد سبعة أيام ، وأبلغ الأسقف اليهود أنه لم يعد في وسعه أن يصد أولئك الغوغاء ، وأشار عليهم بقبول التعميد ؛ وطلب إليه اليهود أن يتركوا وشأنهم لحظة قصيرة ، فلما عاد الأسقف وجدهم جميعاً إلا قليلاً منهم قد قتل بعضهم بعضاً ، ثم اقتحم المحاصرون الدار وقتلوا الباقين أحياء ؛ وبلغ مجموع من قتل في مذبحه وورمز (٢٠ أغسطس سنة ١٠٩٦) نحو ثمانمائة من اليهود . وحدثت مذابح مثلها في Metz ورنجسبرج Regensburg وبراهة Prague (١٤٤) .

وأندرت الحرب الصليبية الثانية بأنها ستفوق الحرب الأولى من هذه الناحية ؛ فقد أشار بطرس المبجل Peter The Venerable ، القديس رئيس دير كلوني Cluny على لويس السابع ملك فرنسا أن يبدأ بمهاجمة اليهود الفرنسيين ، وقال له : « لست أطالبك بأن تقتل أولئك الخلائق الملعين . . . لأن الله لا يريد محوهم من الوجود ، ولكنهم يجب أن يقاسوا أشد ألوان العذاب كما قاساه قاتل أخيه ، ثم يبقوا ليلاقوا هوأناً أقسى من العذاب ، وعيشاً أمر من الموت » (١٤٥) .

واحتج سوجر Suger رئيس دير سانت دنيس St. Denis على هذا الفهم الخاطيء للمسيحية ، واكتفى لويس التاسع ، بفرض ضرائب باهظة على اغنياء اليهود ؛ غير أن اليهود الألمان لم يخرجوا من هذه المحن بالمصادرة وحدها ، فقد خرج راهب فرنسي يدعى رودلف من دير به غير إذن ، وأخذ يدعو إلى ذبح اليهود في ألمانيا . وفي كولوني قُتل شمعون « النبي » وبترت أطرافه ، وفي اسبير عذبت امرأة على العذراء لكي يقنعوها باعتناق المسيحية . وبذل الرؤساء الدينيون مرة أخرى كل ما في وسعهم لحماية اليهود ، فأعطاهم الأسقف آرنلد أسقف كواوني قصرأ حصيناً يجتمعون فيه وأجاز لهم أن يتسلحوا ؛ وامتنع الصليبيون عن مهاجمة الحصن ، ولكنهم قتلوا كل من في أيديهم من اليهود الذين لم يعتنقوا المسيحية . وأدخل هنري كبير أساقفة مينز في بيته يهودا كان الغوغاء يطاردونهم ، ولكن الغوغاء اقتحموا البيت وقتلوهم أمام عينيه . واستغاث كبير الأساقفة بالقديس برنارد St. Bernard أعظم المسيحيين سلطاناً في أيامه ، وأجاب برنارد بأن ندد برودلف تنديداً شديداً وطلب أن يوضع حد للأعمال العنف الموجهة إلى اليهود . ولما واصل رودلف حملته عليهم جاء برنارد بنفسه إلى ألمانيا وأرغم الراهب على العودة إلى الدير . ولما أن وجدت جثة أحد المسيحيين بعد ذلك بقليل مشوهة في ورزبرج Wurzburg ، اتهم المسيحيون اليهود بأنهم هم الفاعلون ، وهاجموهم رغم احتجاج الأسقف أمبيكو Embicho وقتلوا عشرين منهم ، وعنى المسيحيون بكثيرين غيرهم أصابهم جروح في هذا العدوان (١١٤٧) ، ودفن الأسقف القتلى في حديقته (١١٤٦) . وعادت إلى فرنسا فكرة بدء الحرب الصليبية في بلاد المسيحيين قبل انتقالها إلى الشرق ، وذبح اليهود في كارنتان Carentan ، ورامرو Rameru ، وسلي Sully . وفي بوهيميا ذبح الصليبيون ١٥٠ يهودياً ؛ ولما أن انتهت موجة الذعر بذل رجال الدين المسيحيون المحليون كل ما في وسعهم لمساعدة من بقوا أحياء من اليهود ؛ وأجيز لمن قبلوا التعميد مرغمين أن يعودوا إلى الدين

اليهودى ، دون أن توقع عليهم عقوبات الردة القاسية (١٤٧) .

وكانت هذه المذابح إيذاناً بسلسلة من الهجمات الطويلة العنيفة لا تزال باقية إلى هذه الأيام . من ذلك أن حادثة قتل وقعت في بادن Baden عام ١٢٣٥ ولم يعرف مرتكبها اتهم بها اليهود ، فأدى ذلك إلى مذبحه منهم ؛ وفي عام ١٢٤٣ حرق جميع اليهود سكان بلتز Beltz القريبة من برلين وهم أحياء بحجة أن بعضهم قد دنسوا خبزاً للتقدمة مقدساً (١٤٨) . وفي عام ١٢٨٣ أثرت في مينز فكرة ذبح أطفال المسيحيين في بعض الشعائر اليهودية ، وقتل عشرة من اليهود ونهبت البيوت اليهودية على الرغم مما بذله ورنر كبير الأساقفة من جهود . وفي عام ١٢٨٥ أهاجت مثل هذه الشائعة أهل ميونخ Munich ، ولجأ ١٨٠ يهودياً إلى كنيس لهم ، فأشعل فيه الغوغاء النار ، واحترق المائة والثمانون بأجمعهم . وبعد عام من ذلك الوقت قتل أربعون يهودياً في أبرويزل Oberwesel بحجة أنهم امتصوا دماء مسيحي ؛ وفي عام ١٢٩٨ حرق كل يهودى في روتنجن Rottingen حتى قضى نحبه بحجة أن بعضهم قد دنس الخبز المقدس . ونظم رندفلشخ Rindfleisch وهو بارون متمسك بدينه جماعة من المسيحيين الذين أقسموا أن يقتلوا جميع اليهود وأمدتهم بالسلاح . وأبادوا جميع الجالية اليهودية في ورزبرج ، وذبحوا ٦٩٨ يهودياً في نورمبرج Nuremberg ؛ ثم انتشرت موجة الاضطهاد فلم يمض إلا نصف عام حتى محى ١٤٠ كنيساً يهودياً (١٤٩) . وملاً اليأس بعد هذه الاعتداءات المتكررة قلوب يهود ألمانيا ، وكانوا قد أعادوا تنظيم جماعاتهم مراراً وتكراراً ، فغادرت أسر يهودية كثيرة مينز ، وورمز ، واسبير ، وغيرها من المدن الألمانية وهاجرت إلى فلسطين لتعيش في بلاد المسلمين . وإذ كانت بولندا ولتوانيا تطلبان المهجرة إليها ، ولم تكن قد حدثت فيهما مذابح حتى ذلك الوقت ، فقد بدأت هجرة بطيئة من يهود بلاد الرين إلى بلاد الصقالبة في شرقى أوروبا .

وأضحى اليهود في إنجلترا تجاراً ورجال مال بعد أن حرم عليهم تملك الأرض والانضمام إلى نقابات الصناعات . ومنهم من أثروا من الربا وأصبحوا على بكرة أبيهم موضع الكراهية لأكله . وقد استعان الأشراف ملاك الأرض وأتباعهم على التسليح للحروب الصليبية بالمال المقترض من اليهود ، ورهنوا لهم في نظير هذا المال ريع أرضهم ، واستشاط الزارع المسيحي غيظاً لرؤيته المرابين يثرون من كدحه . وحدث في عام ١١٤٤ أن وجد الشاب وليم من أهل نردج Norwich قتيلاً ، واتهم اليهود بمقتله لاستعمال دمه ، وهو جرم الحى اليهودى فى المدينة ونهب وأحرق (١٥٠) . وحى الملك هنرى الثانى اليهود ، وحذا حذوه هنرى الثالث ، ولكنه جمع منهم ٤٢٢٠٠٠ جنيه ضرائب وقروضاً أخرى على رؤوس أموالهم فى سبع سنين . وحدثت فى الاحتفال بتتويج رتسرد الأول فى إنجلترا (١١٩٠) مشاحنة تافهة شجعها الأشراف الذين يريدون أن يتخلصوا مما عليهم من ديون لليهود (١٥١) ، فتطورت إلى مذبحه امتدت إلى لنكولن Lincoln ، واستامفورد Stamford ، وان Linn . وقتل الغوغاء ٣٥٠ منهم فى مدينة يورك فى العام نفسه وكان يقودهم رتسرد ده ملابستيا Richard de Malabestia ، وكان مستغرقاً فى الدين لليهود . ثم قام مائة وخمسون من يهود يورك بزعيمهم الحبر توم طوب Tomi Tob بقتل أنفسهم (١٥٢) . وفى عام ١٢١١ غادر ثلثمائة من أحبار اليهود إنجلترا وفرنسا لبدءوا حياة جديدة فى فلسطين ، وبعد سبع سنين من ذلك العام هاجر كثيرون من اليهود حين نفذ هنرى الثالث أمر الشارة اليهودية . وفى عام ١٢٥٥ راجت شائعة فى أنحاء لنكولن تقول إن غلاماً يدعى هيو Hugh قد أغرى بدخول الحى اليهودى ، ثم جلد ، وصلب ، وطعن بحربة ، بحضور جمع من اليهود المبتهجين . وعلى أثر هذه الشائعة هاجمت عصابات مسلحة مقر اليهود ، وقبضت على الكوهن الذى قيل إنه كان على رأس الاحتفال ، وشدوه إلى ذيل جواد ، وجروه فى الشوارع ، ثم شنقوه . ثم قبض على واحد وتسعين

يهودياً وشتق منهم ثمانية عشر ، ونجا كثير من المسجونين بفضل تدخل جماعة من الرهبان الدمنيكيين البواسل (*) (١٥٤) .

وأفلتت الجماهير من أيدي ولاية الأمور في أثناء الحرب الأهلية التي نشرت الاضطراب في إنجلترا بين عامي ١٢٥٧ ، ١٢٦٧ ؛ وكادت المذابح أن تمحو من الوجود يهود لندن ، وكنتربري Canterbury ، ونورثمبتن Northampton ، وونشستر Winchester ، وورسستر Worcester ، ولنكولن ، وكيمبردج ، فنهبت بيوتهم ودمرت ، وأحرقت العقود ، والسفائح ، وأصبح من بقوا أحياء من اليهود لا يملكون شروى نقيراً (١٥٥) . وكان ملاوك الإنجليز وقتئذ يقترضون المال من أصحاب المصارف المسيحيين في فلورنس وكاهورس Cahors ، وأصبحوا في غير حاجة إلى اليهود ، ومن ثم وجدوا أن من الصعب عليهم حمايتهم . ولهذا أمر إدورد الأول من كان باقياً في إنجلترا من اليهود وكانوا حوالي ١٦٠٠٠ يهودي أن يغادروا البلاد قبل أول نوفمبر من ذلك العام ، وأن يتركوا وراءهم جميع أملاكهم الثابتة وما يمكن استرداده من الديون . وغرق الكثيرون منهم في القناة الإنجليزية التي أرادوا أن يعبروها في قوارب صغيرة ، وسرق ملاحو السفن متاعهم وأموالهم ، فلما وصل بعضهم إلى فرنسا أبلغتهم الحكومة الفرنسية أن عليهم أن يغادروا البلاد قبل بداية الصوم الكبير من عام ١٢٩١ (١٥٦) .

وفي فرنسا أيضاً تبدلت الحالة النفسية بالنسبة لليهود حين قامت الحروب

(*) ولا تزال بكنيسة لنكولن آثار مزار أقيم فيها في الماضي « ليهو الصغير » مصحوبة بالعبارة الآتية : « إن في القصة حوادث كثيرة تلقى الشك على صحتها ، وإن وجود قصص مثاها في إنجلترا وغيرها من البلاد يدل على أن منشأها هو الحقد الناشئ من التعصب على اليهود في العصور الوسطى ، والحرافة المنتشرة وقتئذ ، والتي لا يصدقها أحد قط في هذه الأيام ، بأن قتل الأطفال كان من الشعائر الدينية في عيد الفصح اليهودي . وقد قامت الكنيسة منذ القرن الثالث عشر بمحاولات لحماية اليهود من كراهية الغوغاء ومن هذه التهم بنوع خاص » .

الدينية على الأثرak في آسية ، والملاحدة الألبجنسيين Albigensian في
لنجويدك Languedoc . فقام الأساقفة يلقون الخطب الدينية المثيرة للنفوس ؛
وكان من الشعائر المعتادة في بزير أيام أسبوع الآلام أن يهاجم الغوغاء الحى
اليهودى ؛ وأخيراً دعا أحد رجال الدين المسيحيين في عام ١١٦٠ بالكف
عن هذه المواعظ الدينية ، ولكنه طلب إلى الجالية اليهودية أن تؤدى ضريبة
خاصة في أحد السعف من كل عام (١٥٧) . وفي طولوشه (طولوز) أرغم
اليهود على أن يبعثوا بممثل لهم إلى الكنيسة في يوم الجمعة الحزينة من كل
عام ليتلقى صفقة على أذنه لتكون بمثابة تذكرة لهم خفيفة بخطيئتهم
الأبدية (١٥٨) . وفي عام ١١٧١ أحرق عدد من اليهود في بلاوا Blois بحجة
استخدامهم دماً مسيحياً في شعائر عيد الفصح اليهودى (١٥٩) . ورأى الملك
فليب أغسطس الفرصة سانحة ليزبذ منهم المال محتجاً بالدين ، فأمر بأن
يسجن جميع من في مملكته من اليهود لأنهم يسممون آبار المسيحيين (١٦٠) ،
ثم أمر بإطلاق سراحهم بعد أن اقتلدوا أنفسهم بمال كثير (١١٨٠) ،
غير أنه طردهم من البلاد بعد عام واحد ، وصادر جميع أملاكهم الثابتة ،
وأهدى معابدهم للمسيحيين . وفي عام ١١٩٠ أمر بقتل ثمانين يهودياً
في أورانج Orange لأن ولاية الأمور في المدينة شنقوا أحد عماله لقتله أحد
اليهود (١٦١) ، ثم استدعى اليهود إلى فرنسا عام ١١٩٨ ونظم أعمالهم
المصرفية تنظيماً يضمن به لنفسه أرباحاً طائلة (١٦٢) . وفي عام ١٢٣٦ دخل
الصلبييون المسيحيون الأحياء اليهودية في أنجو Anjou وپواتو Poitou -
وبخاصة ما كان منها في بوردو Bordeaux وأنجوليم Angoulême -
وأمرؤا بأن يعمد اليهود جميعاً ، فلما أبوا داسوا بحوافر خيولهم ثلاثة آلاف
منهم حتى قضوا نجهم (١٦٣) . وندد البابا جريجورى التاسع بهذه المذبحة ،
ولكنه لم ينج اليهود من الموت . وأشار القديس لويس على رعاياه بالألا يجادلوا
اليهود في أمور الدين ، وقال لجوانفيل Joinville إن من واجب كل شخص
من غير رجال الدين : « إذا سمع إنساناً يذكر الدين المسيحى بما لا يليق

أن يدافع عنه بالسيف لا باللفظ ، ينفذه في بطن الآخر إلى أبعد مدى ينفذ فيه (١٦٤) . وفي عام ١٢٥٤ نفي اليهود من فرنسا ، وصادر أملاكهم ومعابدهم ، ثم عاد فسمح بدخولهم إليها ، ورد إليهم معابدهم ، وبينما كانوا يعيدون بناء جماعاتهم إذ أمر فليب الجميل Philip the Fair (١٣٠٦) بسجنهم ، وصادر ما كان لهم من ديون ، وجميع ما كان لهم من متاع لم يستثن إلا ما كان عليهم من الثياب ، ثم طردهم جميعاً من فرنسا وكانوا يبلغون مائة ألف ، ولم يسمح لهم بأكثر مما يكفيهم من الطعام يوماً واحداً . وقد بلغ ربح الملك من عمله هذا قدرأ أغراه بأن يهدى معبداً يهودياً إلى سائق عربته (١٦٥) .

وهكذا تجمعت طائفة متقاربة من الحوادث الدموية دامت نحو مائتي عام تكونت منها صورة ذات وجه واحد . ولم يقع على اليهود في پروقانس Provence ، وإيطاليا ، وصقلية ، والإمبراطورية البيزنطية بعد القرن التاسع إلا حوادث اضطهاد صغرى ، واستطاعوا وقاية أنفسهم منها بالالتجاء إلى أسبانيا المسيحية . وكانت فترات الطمأنينة حتى في إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا طويلة ، وكان اليهود يكثرون مرة أخرى ويثري بعضهم بعد كل مأساة تنزل بهم . غير أن قصصهم كانت تنقل إليها ما كان لهذه الفترات المحزنة من ذكريات مرّة ، وكانت أيام السلام مليئة بخوفهم من خطر المذابح الذي لا ينفك يهددهم ، وكان على كل يهودى أن يحفظ عن ظهر قلب الدعاء الواجب عليه أن يتلوه في ساعة الاستشهاد (١٦٦) . وكانت حمى السعوى إلى جمع المال ترتفع حرارتها بقدر ما كان يحيق بكسبه من أخطار ، وكان لا يسو الشارة الصفراء يقابلون في الطرقات بسخرية الساخرين على الدوام ، كما كان يحيق بهذه الأقلية المنعزلة العديمة الحول والطول تحقير يحز في نفوسها ويذل من كبرياء أفرادها ويقطع ما بينها وبين العناصر الأخرى من مودة ، ويترك في أعين يهود الشمال تلك النظرة المعروفة بأحزان اليهود Judenschmerz التي تذكرهم بعشرات المئات من الإهانات والاعتداءات ألا ما أكثر من صلبوا انتقاماً لحادث صلب وحيد !